سلسلة تراث وآثار
الشهيد مرتضى مطهري

الروح والنور

في القرآن الكريم

- طهارة الروح
- تفسير سورة النور

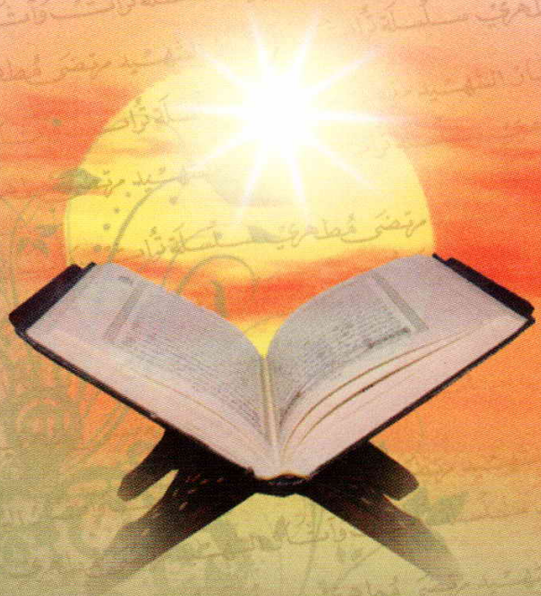

الروح والنور

في القرآن الكريم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع تلفون ٧٠/١٢٤٦٩١

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع دكاش بناية فواز ٠١/٢٧٥٦٧٨

E-mail: al-ershad@live.com

سلسلة تراث وآثار الشهيد مرتضى مطهري

الروح والنور

في القرآن الكريم

طهارة الروح

تفسير سورة النور

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع

«..أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء، والطبقة المثقفة المتنورة، الملتزمة، أن لا يدعو دسائس غير المسلمين تنسيهم مطالعة كتب هذا الأستاذ العزيز..».

الامام الخميني

سلسلة تراث وآثار
الشهيد مرتضى مطهري

كتاب
تفسير سورة النور

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

دأب الاستاذ مرتضى المطهري منذ بداية نشاطه الفكري والثقافي على تقديم صورة مشرقة عن الإسلام عبر ما جاد به من نتائج أغنى بها المكتبة الإسلامية. حيث حرص على استكناه مكنونات العقيدة الإسلامية وسبراغوارها وتقصّي حقائقها والخروج بحصيلة نفيسة منها تثري ثقافة القارىء وتروي ظمأه وتكشف له عن أسباب الترابط والانسجام القائم بين مختلف آفاقها، والتآلف الذي يطبع شتّى أبعادها.

عالج المرحوم في ما كتبه مختلف جوانب الدين الإسلامي، ولم يدع موضوعاً إلا وقال فيه، وبزّ في قوله الماضين، واستقطب اهتمام الحاضرين، وحظيت مؤلفاته باستقبال واسع واهتمام فائق وخاصة من قبل الشباب، ونالت الاستحسان والثناء من كل من قرأ ولو شيئاً يسيراً منها.

وعلى الرغم من سمة التجديد التي يتميّز بها أسلوبه، إلاّ أنّه لم يتأثّر قط بالأفكار المستوردة ولا الآراء الدخيلة، ومع ما طبع منهجه من عمق وأصالة إلاّ أنّه رفض الانسياق وراء المقولات الجامدة والآراء المتوارثة إذا كان يرى فيها ما يتعارض مع حقيقة الدين وجوهر الشريعة. فتجرّأ وبشكل صريح على تفنيد آراء كانت من المسلّمات المتوارثة غير آبهٍ بنقد الناقدين وإشاعات المغرضين.

فكان رحمه الله مثالاً للعالم الذي أوقف نفسه لدينه وكرّس وقته لتوجيه الشباب وهدايتهم نحو سبيل الصواب.

وحرصاً منّا على اطلاع القارىء العربي على نتاج هذا المفكّر الفذ، نقدم له في ما يلي الترجمة العربية لكتاب تفسير سورة النور.

آملين من الله القبول والإثابة
خليل زامل العصامي
٥ شوال ١٤١٨ هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[1].

تصادف هذه الأيام ذكرى وفاة الصديقة الطّاهرة سيّدة نساء العالمين عليها السلام والتي هي رمز قدسيّة العفاف في عالم الإسلام، لذا فقد عقدنا العزم على تفسير سورة النور من خلالها. ويُعزى السبب في اختيار هذه السورة إلى أنّ أكثر آياتها تقريباً تدور حول الشؤون المتعلّقة بالفعّة.

السورة الوحيدة التي تبدأ بمثل هذه الآية ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ هي هذه السورة. هناك سور كثيرة تبدأ بآية ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي تشير إلى القرآن كلّه. ولكن هنا تشير الآية إلى هذه السورة بمفردها. ويتّضح منها أن هناك اهتمام خاص بمقاد هذه السورة.

تعلمون أنّ السورة معناها مجموعة الآيات الشريفة التي تبدأ بالبسملة ثم تنتهي بشكل تبدأ بعده بسملة أُخرى. القرآن من الكتب التي ليس فيها فصل وباب وقِسم. إلاّ أنّه مُقسّم إلى سور وكلّ سورة تبدأ بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]،

---

(١) سورة النور: ١ ـ ٣.

(٢) هناك سورة واحدة في القرآن لا تبدأ بالبسملة وهي سورة التوبة (المترجم)

وتدلّ البسملة التي تأتي بعد تلك الآيات على انتهاء السورة السابقة. ويقال أنّ كلمة «سورة» مشتقّة من «السور» ويُقصد به الجدار المحيط بالمدينة أو القرية أو القصبة، وسور البلد يراد به الحائط المرتفع الذي يُبنى حول المدينة. ويبدو هنا وكأن كلّ سورة محاطة بجدار أو سور، وهذا هو وجه تسميتها بالسورة.

والقرآن جزّأه الرسول ﷺ بنفسه سوراً، لا إنّ المسلمين جزّؤوه لاحقاً. أي أنّ القرآن منذ نزوله، نزل مجزّءاً إلى سور.

تبدأ الآية الأُولى بعبارة ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾، ثمّ بعدها جاءت عبارة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ لتؤكّد أنّ القضايا المتعلّقة بالعفاف قضايا في غاية الأهميّة؛ أي على العكس ممّا يتصوّره بنو الإنسان في وقتنا الحاضر من خلال توجههم صوب تسهيل وتبسيط العلاقات الجنسية، والاستخفاف بها أيضاً، ويسمّون ذلك اعتباطاً باسم «الحريّة»، أو السير نحو «الحرية الجنسيّة»، وأنّ كل ما عرضه القرآن من أساليب لصيانة العفاف، وما صرّح به من عقوبات للتهتّك، وما بيّنه من جزاء على تلويث سمعة النساء العفيفات واتّهامهن كذباً بالتحلّل، وما جاء فيه من ترغيب بالزواج، وخلاصة القول: كلّ ما أورده في ما يتعلّق بباب العفاف، أراد التأكيد من خلاله على إنّ هذه القضايا تحظى بأهمية وجدّية قصوى، ولها حكم الفرض ولا مجال للتسامح فيها. وأنّ أحد أسباب تعاسة عالم اليوم هو الاستهانة بأُصول العفاف والتقوى في الشؤون الجنسيّة، وهو ما سنتعرض له في ما بعد. ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ وفرضنا التمسّك بما ورد فيها، يعني أنّنا نهتم بها ولا نستهين بشأنها. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ قد يراد هنا جميع آيات السورة، أو كما ذكر العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: أنّ المراد بها الآيات التي جاءت في وسط السورة، وهي التي تشكّل في الواقع عمودها الفقري.

تتحدّث سائر آيات هذه السورة عن الأخلاق والآداب الجنسية. أما تلك الآيات فتتعلّق بأُصول العقيدة. وسنبيّن وجه تناسبهما في ما بعد. وعلى كلّ حال يقول القرآن أنّنا قد أنزلنا في هذه السورة آيات بينات لإيقاظكم وتوعيتكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ربّما أنّكم تعلمون الفارق بين «التفكّر» و«التذكّر». التفكّر يكون في

الموارد التي يجهل فيها الإنسان قضية ما ولا يعلم شيئاً عنها. أمّا التذكّر فيكون في المسائل التي تدرك فطرة الإنسان صحّتها بشكل تلقائي، ولكن يجب تذكيره بها ولفت نظره إليها. القرآن يشير إلى هذه المسائل على وجه الخصوص بصفة «التذكّر» وربّما يعود أحد أسبابها إلى احترامه للإنسان، وكأنّه يريد أن يقول له أنّنا نلفت انتباهك إلى هذه الأُمور، وهي أُمور لو أنّك فكّرت فيها لوقفت على حقيقتها إلاّ أنّنا ننبّهك إليها ونذكّرك بها.

تختص الآلية التالية لها بذكر عقوبة الزنا، فتقول:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بيّنت هذه الآية ثلاث نقاط هي:

أولاً: أنّ الزاني سواء كان رجلاً أم إمرأة يجب أن يعاقب، وعقوبته بيّنها القرآن وهي «مائة جلدة» لكلّ واحد منهما.

ثانياً: يحذّر المؤمنين أن لا يقعوا إزاء هذه العقوبة تحت تأثير عواطفهم فيقولون أن المائة جلدة شديدة الألم فيا حبّذا لو ننقص شيئاً منها، فهنا ليس موضع رأفة أو شفقة. يقول إيّاكم والانسياق وراء العواطف والتهاون في تنفيذ هذا الحد، أو تتصوّروا حسب المصطلح الحديث أنّ هذا العمل «غير إنساني»، كلاّ، بل هو عمل إنساني.

ثالثاً: لا تنفّذوا هذه العقوبة خفية، لأنّها شرّعت من أجل أن تكون عبرة للآخرين. ولا بدّ من وجود جماعة من المؤمنين ليشهدوا تنفيذ هذه العقوبة. والمراد هنا هو أن تنفّذ العقوبة بشكل يجعل الناس جميعاً يعلمون أنّ هذا الرجل الزاني أو تلك المرأة الزانية قد أُقيم عليه أو عليها الحد. إذن هذه العقوبة يجب إجراءها علناً لا خفية.

أريد التحدّث مفصلاً عمّا ورد في النقطة الأُولى بشأن قانون عقوبة الزنا. فما هي الحكمة من عقوبة الزنا؟

تلاحظون غالباً فيما إذا قرأتم الكتب التي تتناول هذا الموضوع أنّها

حددت السبب في عقوبة الزنا بأنّه يعود إلى «سيادة الرجل». ففي الأدوار التي كان فيها الرجل هو سيّد الأسرة ـ بمعنى أنّه كان المالك لها، وليس للمرأة فيها أي حقّ وإنّما هي أداة بيده لقضاء حاجاته، وكان الرجل يعتبر نفسه مالكاً للمرأة ـ حينما تزني المرأة، تصبح في نظر الرجل وكأنّها منحت شيئاً هو من ممتلكاته إلى شخص آخر، ولهذا السبب شرّعت عقوبة الزنا.

من الواضح أنّ هذا الكلام ليس له أي أساس في أحكام الإسلام. وعقوبة الزنا في الإسلام لا تقتصر على المرأة، بل الرجل يعاقب عليها والمرأة. ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

ولو كان الأمر كذلك لما فُرضت أي قيود أو حدود على الرجل، ولكانت المرأة هي الممنوعة من الزنا لوحدها ـ ولعلّ مثل هذه القوانين كانت سائدة في بعض أرجاء العالم بحيث تمنع الزنا على المرأة فقط، وتبيحه للرجل ـ في مثل هذه الحالة يجوز القول أنّ الحكمة من عقوبة الزنا هي «سيادة الرجل». ولكن في الإسلام كلاهما ـ رجلاً وامرأة ـ محرّم عليهما الزنا. ومعنى هذا الكلام أنّ الرجل بإمكانه تحقيق رغباته الجنسيّة في إطار الزواج فقط. والزواج معناه قبول سلسلة من التعهدات والمسؤوليات. وكذلك المرأة يحقّ لها قضاء رغباتها الجنسية في إطار الزواج فقط، شرط القبول بسلسلة من التعهدات والمسؤوليات.

إذن الرجل لا يحقّ له إشباع غريزته الجنسيّة بدون وجود الزواج. وكذلك المرأة ليس لها مثل هذا الحقّ. وبناءً على هذا فإنّ حرمة الزنا لا تختص بالمرأة وحدها، وإنّما تشملهما كليهما.

قد تثار هنا مسألة أُخرى وهي أنّ المتعارف في أوروبا اليوم أنّ الرجل والمرأة إذا كانا بتعبير الإسلام محصن ومحصنة يُمنع عليهما الزنا. أي إذا كان للرجل زوجة وللمرأة زوج لا يحقّ لأي منهما أن يزني. ولكن لا يمنع ذلك على غير المتزوّج رجلاً كان أم امرأة. وطبعاً لا يجوز لغير المتزوّج الزنا بالمتزوّجة، كما لا يجوز لغير المتزوّجة الزنا مع المتزوّج. ولكن الرجل غير

المتزوّج والمرأة غير المتزوّجة ليس عليهما أي منع. ولكن لماذا يمنعون ويجوّزون على هذه الشاكلة؟.

يتصوّرون في أوروبا أنّ الحكمة من تحريم الزنا على المتزوّج هي أنّه يكون بهذا العمل قد خان زوجته وهضمها حقّها. والحكمة في تحريم الزنا على المتزوّجة أنّها تهضم بهذا العمل حقّ زوجها. إذن فالرجل غير المتزوّج ليست له أية مسؤولية أمام أحد، والمرأة غير المتزوّجة لا مسؤولية عليها أما أحد. فلا إشكال إذن في ممارسة أيّ منهما للزنا.

أمّا في رأي الإسلام فهناك مسألتان بشأن هذه القضية وهما:

أولاً: ليس للرجل والمرأة إشباع رغباتهما الجنسية خارج إطار تشكيل العائلة، سواء كان للرجل زوجة أم لم يكن، أو سواء كان للمرأة زوج أم لم يكن. الإسلام أولى أهمية استثنائية للعائلة بحيث منع أي إشباع للغريزة الجنسية خارج نطاق العائلة، واعتبر المحيط العائلي هو الموضع المناسب لتلبية متطلّبات الرغبة الجنسية، ولم يسمح للرجل والمرأة الاستمتاع ببعضهما الآخر خارج المحيط العائلي.

ثانياً: مسألة عقوبة الرجل المحصن والمرأة المحصنة. حيث أقرّ الإسلام عقوبتين، والعقوبة التي أقرّها للإنسان المحصن أكثر شدّة. وقد وضع عقوبة عامّة وهي مائة جلدة، والأخرى هي الرجم.

أحد الأُمور التي توطد أُسس البناء العائلي والجو العائلي هي هذه المسألة التي يُعزي إليها سبب تصدّع أركان البناء العائلي في العالم الأوروبي، وفي مجتمعنا أيضاً كلّما توغلنا في السير على النهج الأوروبي ازداد لدينا مستوى الانهيار في بناء العائلة.

وحينما كان مجتمعنا متمسّكاً حقّاً بأحكام الإسلام، أي أنّ الشباب لم تكن لهم قبل الزواج أيّة صلات مع امرأة أو فتاة، ولم تكن لهم صديقة، وهكذا كانت الفتيات أيضاً، كان الزواج بالنسبة لهم أُمنية.

الفتى حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره يتولّد لديه شعور طبيعي

بالحاجة إلى الزوجة، وهكذا الحال بالنسبة للفتاة. وكان من الطبيعي أنّ الفتى يتمنّى الزواج، لأنّه بواسطة الزواج يتحرّر من الحدود المفروضة عليه في مجال الاستمتاع بالمرأة، ويدخل في إطار حريّة الاستفادة منها. وحينها لا تكون ليلة الزفاف أقل سعادة من الليلة التي يمسي فيها الملك ملكاً. لأنّ هذه المرأة تعتبر بالنسبة لهذا الشاب من الناحية النفسية أوّل مخلوق أخرجه من تلك المحدودية إلى إجواء الحرية. وكذلك بالنسبة للفتاة فإنّ ذلك الفتى هو أوّل من أخرجها من ذلك القيد إلى جو الحرية.

وهذا هو العامل الذي يجعل الفتيات والفتيان الذين لم يكونوا قد رأوا بعضهم من قبل يألفون بعضهم بعد الزواج إلى حد بعيد. لا أُريد القول هنا أنّ عدم رؤيتهم لبعضهم قبل الزواج عمل صحيح، لأن الإسلام أباح لهم الرؤية. ولكن حتّى وإن لم يكونوا قد رأوا بعضهم من قبل فإنّهم يتعلّقون ببعضهم حتّى آخر العمر.

أمّا النظام الاجتماعي في الغرب فيبيح للشاب وللشابة حرية العلاقات الجنسية ما دام أحدهما لم يتزوّج. فتكون نتيجة ذلك أنّ الزواج يصبح قيداً يحددهما؛ قبل الزواج كانت لكلّ منهما الحرية في إقامة علاقة مع من يشاء. ولكن تصبح علاقته بعد الزواج مقصورة على شخص واحد. وهذا هو السبب الذي يدفع الشاب الذي يوشك على الزواج أن يقول: إنني منذ اليوم أدخلت نفسي في السجن، وكذلك الفتاة يصبح الزوج سجّانها أي أنّ الزواج يسلب الشخص حريته الجنسية ويفرض عليه قيداً.

أمّا الزواج في النظام الاجتماعي الإسلامي فيعني الخروج من القيد إلى الحرية. ومن الطبيعي أنّ الزواج الذي يبنى أساسه على الخروج من القيد إلى الحريّة ينتج عنه الثبات والاستقرار. أمّا الذي يُشيّد بناؤه على فقدان الحرية والدخول في التقييد فهو أوّلاً، لا يتمتّع بالثبات والاستقرار. أي أنّه يؤدّي إلى الطلاق السريع، وثانياً: إنّ الشاب الذي جرّب ـ على حد قول الأوروبيين ـ عشرات أو أحياناً مئات الفتيات، والشابة التي جرّبت عشرات ومئات الرجال، هل يمكن الآن أن يتقيّد بشخص واحد؟ وهل يمكن تقييده؟.

تحريم الإسلام للزنا لا يقتصر سببه على أنّ هذا حق ذلك الرجل وذاك

حق تلك المرأة. إذن فالرجل غير المتزوّج والذي لا تقع عليه أية مسؤولية أمام أيّة امرأة، والمرأة غير المتزوّجة التي لا مسؤولية عليها إزاء أي رجل، لا مانع أمامهما من ممارسة هذا العمل! والرجل الذي لا يرغب في الزواج طوال حياته يكون مطلق العنان، وكذلك المرأة التي لا تميل إلى الزواج طوال حياتها يطلق لها العنان. الإسلام يرفض هذا رفضاً قاطعاً. فإمّا القبول بالحرمان المطلق، وإمّا الجنوح إلى الزواج والالتزام بما يفرضه من مسؤوليّات.

ومن هنا شرّع الإسلام للزنا عقوبة، وجعل عقوبة الزنا المجرّد عن طمس حقوق امرأةٍ أو سحق حقوق رجلٍ، هي الجلد. ويحكم الإسلام على الرجل المحصن الذي يزني لا بدافع ضغط الشهوة الجنسيّة طبعاً، وعلى المرأة المحصنة التي تمارس الزنا لا بدافع الغريزة الجنسية طبعاً وإنّما بدافع النزوة والهوى، بالرجم.

لاحظوا إلى أي حد يعير الإسلام أهمية لمثل هذه الاعتبارات! العالم الأوروبي كان يقول ابتداءً أنّ الزنا لغير المتزوّج ولغير المتزوّجة ليس جريمة.

يقول برتراند راسل: إلاّ أن يوقع جراحة، فإذا لم يحصل جرح فلا ضير. ووصل بهم الحال إلى أنّ برتراند راسل يقول صراحة: لا مانع من الزنا بين المتزوّج والمتزوّجة، فما المانع في أن يكون للمتزوّجة عشيق تمارس معه الهوى في مكان، وزوج تعيش معه الحياة الزوجية؟ فيكون لها في الوقت ذاته زوج وعشيق؟ تمارس مع ذاك الهوى، وتنجب لهذا الأطفال. ولكن تقدّم تعهّداً باستخدام موانع الحمل عند ممارسة الهوى مع العشيق.

ولكن هل راسل نفسه يصدّق هذا الكلام؟ أي عاقل يصدّق أنّ امرأة تحبّ شخصاً وتعشقه، وتكون زوجة لزوج غيره وتتعهّد أن لا تنجب طفلاً إلاّ للزوج.

كلّ امرأة ترغب في أن يكون لها ولد تجد فيه تجسيداً وذكرى للرجل الذي تحبّه لا أن يكون أمامها ذكرى لرجل تمقته. ثم ما الضمانة على عدم الحمل من الرجل الذي تحبّه ثمّ إلصاق الوليد برقبة زوجها؟.

يبدو أنّ القرآن قد التفت إلى هذا الجانب فقال: ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ هذه من

القوانين الثابتة التي لا تغيّرها متطلّبات العصر ولا يمكن لها تغييرها. فهي من مبادىء الحياة البشرية ولا يطالها التغيير.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ليس هنا موضع رأفة أو تسامح، فما أن يثبت الأمر لا يمكن بعد ذلك التهاون فيه. وتؤكّد الجملة اللاحقة على عدم إجراء هذا الحكم، أي إقامة الحد على الزاني والزانية، خلف الأسوار وبعيداً عن أنظار الناس. بل لا بدّ وأن يقام أمام الأنظار ويشيع خبره في كلّ مكان ليكون واضحاً أنّ الإسلام يبدي أهمية فائقة لقضية العفاف، لأنّ الغاية من إقامة الأحكام الجزائية هي التأديب وتربية المجتمع. فلو أنّ امرأة زنت وعوقبت خفية حتّى ولو بالإعدام فإن عقوبتها لا تجدي في المجتمع أثراً. وفي عصر صدر الإسلام متى ما كانوا يريدون إجراء هذه الأحكام ـ وكانت قلّما تجري إذ بما أنّهم كانوا يطبّقون هذه الأحكام فإنَّ الزنا نادراً ما كان يقع ـ كانوا يعلنون ذلك على الملأ.

ما أجمل ما قيل هنا: «**لا يُرى الجاهل إلا مُفرِطاً أو مُفَرِّطاً**»[1]. فقد كانت أوروبا، قبل قرنين أو ثلاثة حينما كان القانون السائد فيها هو قانون الكنيسة، تنتهج أشدّ الأساليب تطرّفاً في تحديد العلاقات الجنسية، وكانت تطرح ضد الإسلام سلسلة من المؤاخذات.

كانت العلاقات الجنسية في قانون الكنيسة رذيلة حتّى مع الزوجة الشرعية. بل أنّهم كانوا ينظرون إلى المرأة كموجود نجس ذاتاً، ومقاربة المرأة كان عندهم عملاً قذراً حتّى مع المرأة الشرعيّة. ولهذا السبب كان الشخص المنزّه والمقدّس في رأيهم والجدير ببلوغ المراتب الروحية الرفيعة هو الشخص الذي لم يقارب امرأة في حياته ولم يلمس امرأة قط.

والبابا لديهم يُنتخب من بين الأشخاص الذين قضوا حياتهم في العزوبة، بل وكانت العزوبة ذاتها «مقدّسة» لديهم. كانوا يقولون أنّ هذا العمل المقدّس جدير بأن يؤدّيه أشخاص لم يخالطوا النساء طوال حياتهم. ومثل هؤلاء

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٧٠.

الأشخاص قليلون طبعاً، وهم الذين يصبحون في ما بعد قساوسة وكاردينالات، أو يبلغ بعضهم درجة البابوية. وكانوا يقولون أنّ أكثر الناس لا يستطيعون العيش بلا زواج، وإذا نحن قلنا لهم لا تتزوّجوا يضطرون لممارسة الزنا وهو عمل أقبح، بل ويحرصون على ممارسة الجنس أكثر فأكثر، ولهذا أُبيح الزواج من باب «دفع الأفسد بالفاسد».

أمّا الإسلام فعلى العكس من ذلك فقد ذمّ العزوبية وقال: «إنّ الأرض تضجّ إلى الله من بول الأعزب»[1]. ويقدّس الزواج.

يُذكر لكلمة «المُحصنَ» أو «المُحصِن» في القرآن معنيان، تارة تستخدم للمرأة المتزوّجة على وجه الخصوص بمعنى أنّها في حصن الزواج، وتستخدم تارة أُخرى بمعنى المرأة العفيفة وإن كانت غير متزوّجة. والمراد هنا هو المعنى الثاني.

فالذين يرمون النساء العفيفات بسهام التُهمة والتشكيك في عفّتهن ولا يأتون بأربعة شهود يجب أن يُقام عيهم الحد.

الإسلام لا يقبل أي ادّعاء بلا دليل. لكن بعض الادعاءات تقبل ولو بكلمة من امرأة واحدة، مثل القضايا المتعلّقة بالنساء حين تقول المرأة شيئاً عن ذاتها مثلاً حينما يريد شخص طلاق زوجته، فبما أنّ الطلاق لا يجوز أثناء العادة الشهرية، لهذا تُسأل المرأة هل هي طاهرة أم في وقت العادة؟ إذا قالت طاهرة يكفي، وإذا قالت أنّها في حالة العادة يُقبل قولها. فلا يقال عند ذاك بوجوب الاتيان بشاهدين، بل أنّ كلامها وحده معتبر.

في بعض الحالات لا بدّ من وجود شاهدين من الرجال كما هو حال الدعاوى المالية.

ولكن في قضايا الشرف حيث حرمة الشرف وتلوّث العفاف يؤكّد الإسلام على أنّ الشاهدين العدلين لا يكفيان أيضاً. أي لو جاء عادلان ممّن يثق الناس بهما ويصلّون خلفهما أو يقلّدونهما ويقولان أنّهما رأيا امرأة معيّنة قد زنت،

---

(١) ورد نظير هذه الروايات بشأن الأغلف الذي لم يُختن.

يرى الإسلام أنّ هذا لا يكفي، فأنتما شخصان. وحتّى إذا كانوا ثلاثة أشخاص، فالإسلام يقول. لا يكفي. ولو جاء أربعة عدول وشهدوا حينذاك يعتبر الإسلام تلك المرأة متّهمة، ويعتبر كلامهم دليلاً كافياً.

قد يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك فهذا الأمر لا يحدث، فمن أين يأتي أربعة شهود ويشهدون أنّ امرأة قد زنت؟ نقول: وهل جعل الإسلام قضية الزنا مبنيّة على المتابعة والمراقبة والتفتيش؟ الإسلام حينما يقول أربعة شهود لا يستهدف من وراء ذلك إشاعة المراقبة والمتابعة حتّى يقال أنّ هذه الشروط مرهقة ولا تحصل حتّى حالة واحدة من مائة ألف حالة أن يأتي أربعة وبدلوا بمثل هذه الشهادة. الإسلام يريد إثبات أقل ما يمكن من حالات الزنا. ولو حصلت ألف حالة زنا في الخفاء فهي في الإسلام أهون من اتّهام امرأة عفيفة بالزنا.

الإسلام لا يريد وقوع الزنا، لكنّه لا يريد ذلك عن طريق الشهود والعقوبة، بل وضع لهذا المورد سبلاً أخرى. ولو طبّقت أساليب التربية الفردية والتعاليم الاجتماعية الإسلامية لما وقع الزنا. لا أن يُعاقب على الزنا إذا ما وقع ليردع عن وقوعه. أجل، لقد سنَّ العقوبة أيضاً لمن لا تجدي فيهم نفعاً تلك التربية، ليعلموا أنّ هناك السوط أيضاً وهناك القتل، وهناك القتل حتّى بالرجم.

إذن قلنا بوجوب توفّر أربعة شهود، أضف إلى أنّ في الشهادة خطر على الشاهد فلو رأى شخص امرأة تزني ولم يكن هناك ثلاثة آخرون يشهدون معه يجب عليه أن يلزم الصمت. أو إذا رأى الزنا شخصان، يجب أن يلزما الصمت، أو إذا رأى الزنا ثلاثة، يجب أن يلزموا الصمت. لأنهم إذا شهدوا يقال لهم شهادتكم لا تكفي، وإذا كانت غير كافية لا يُقال لهم اذهبوا إلى بيوتكم! وإنّما يقال لهم: بما أنّكم شهدتم ولم تستطيعوا إثبات مدّعاكم فأنتم إذن قاذفون، ويجب أن يجلد كلّ واحد منكم ثمانين جلدة. وهذا هو قول القرآن أنّ الذين يرمون النساء العفيفات بالتهمة ولا يأتوا بأربعة شهداء، اضربوهم ثمانين جلدة حتّى وإن كانوا صادقين لأنّهم بقولهم هذا يتّهمون امرأة بشرفها.

ولكن هل يقتصر الأمر على هذه العقوبة البدنية؟ كلاّ، بل هناك عقوبة اجتماعية أُخرى وهي: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وهذا يعني إسقاط اعتبارهم

الاجتماعي. لماذا؟ لأنهم اتّهموا امرأة عفيفة بالزنا ولم يستطيعوا إثبات تلك التهمة.

العقوبة الثالثة هي: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]. وهنا يختلف المفسّرون: هل ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عقوبة أُخرى في معزل عن ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أم هي ذاتها، أي كلتاهما عقوبة واحدة؟ البعض قالوا أنّها واحدة، على أساس أن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يُعتبر سبباً لـ ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾. أي أنّهم صاروا فسقة بسبب هذه التهمة، وبما أنّهم أصبحوا فسقة، فشهادتهم غير مقبولة؛ بل ولا يقبل منهم كل ما تُشتر فيه العدالة، فلا يجوز مثلاً إجراء صيغة الطلاق عند أحدهم، ولا يُصلّى خلفهم، وإذا كان أحدهم مجتهداً لا يجوز تقليده. لأن الشرط في كلّ هذه الأعمال هي العدالة. وعلى هذه فمجموعة الكلّي عقوبة واحدة.

إلاّ أنّ البعض قال أنّهما عقوبتان؛ إحداهما عدم قبول الشهادة، والثانية هي صفة الفسق. وبما أنّهم فسقة فإنّ سائر آثار الفسق تترتّب عليهم. وهذان الأمران يمكن فصلهما عن بعضهما. ولو أنّ هذا الشاهد الذي لم يستطع إثبات ادّعائه تاب، تزول عنه صفة الفسق، أي يمكننا اعتباره عادلاً؛ فنصلّي خلفه وإذا مجتهداً أمكن تقليده، كما ويجوز له تبوّأ منصب القضاء «لأنّ القاضي تشترط فيه العدالة». لكن شهادته لا تقبل، لأنّ تلك العقوبة بمعزل عن هذه. وهذا هو السبب الذي يجعل البعض يعتقد إنّ عدم قبول شهادة مثل هذا الشخص ليس فسقه، لأنّ هذه عقوبة أُخرى غير تلك فاعتبار الإنسان فاسقاً ـ في رأي الإسلام عقوبة ـ وعدم قبول شهادته عقوبة أُخرى.

من هنا يتّضح معنى الآية التالية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] وهذا الاستثناء يمكن حمله ابتداءً على ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: هو أن الشخص لو ادّعى ولم يستطع إثبات مدّعاه

---

(١) سورة النور: ٤.

(٢) سورة النور: ٥.

وأعلن عن توبته لا يُجلد، وشهادته من بعد هذا تُقبل، وهو ليس بفاسق. إلاّ أنّ مثل هذا الاحتمال لم يقل به أحد. فأي شخص ما أن يتّهم امرأة ولا يستطيع إثبات التهمة لا بدّ وأن يجلد.

الاحتمال الثاني: إنّه إذا تاب تُقبل شهادته ولا يعتبر فاسقاً. أي ترفع عنه العقوبات الاجتماعية ويُعاد إليه اعتباره.

الاحتمال الثالث: إنّ شهادته لا تُقبل إلى الأبد. أي أن العقوبة الثانية لا تزول عنه. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ استثناء من العبارة الأخيرة، أي يُعاد إليه الاعتبار بالقدر الذي يسمح بالصلاة خلفه، وتقليده، وتعيينه لمنصب القضاء. لكن شهادته لا تقبل أبداً. ولا يُسْتَبعد أن يكون الاحتمال الثالث هو الأصح، أي ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ استثناء من ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. والآية التالية هي: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾[1].

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده أنّ رجلاً إذا اتّهم امرأة بالزنا يجب عليه الاتيان بأربعة شهود، وليعلم أنّه إذا لم يأت بأربعة شهود يُجلد، إذن فما عليه إلاّ أن يلزم الصمت.

ولكن إذا كان الذي شاهد المرأة تزني هو زوجها، فما هو موقفه؟ هل يجب عليه تهيئة أربعة شهود حتّى يأتي إلى حاكم الشرع ويصرّح له أنّ زوجتي قد زنت؟ فإذا أراد البحث عن الشهود الأربعة يكون هذان قد أتّما فعلتهما.

وإذا كان الشاهد شخصاً غير الزوج يُقال له إذا لم يكن معك شهود، إلزم الصمت ولا تتحدّث بشيء، فما شأنك وهذا؟ وإذا تكلمت تُجلد.

أمّا الزوج فيجب أن يقسم بالله أمام الحاكم أربع مرات ويُشهد الله أنّ ما يقوله صدق وأنّه غير كاذب. أي أنّ الشهادة مرّة واحدة لا تكفي، بل لا بدّ من أربع شهادات تقترن كلّ واحدة منها بالقسم بالله. وهل هذا يكفي؟.

---

(١) سورة النور: ٦ ـ ٧.

كلاّ، لا يكفي، بل يقول في الخامسة لعنة الله عليَّ إن كنت كاذباً. وهل انتهى الأمر عند هذا الحد فيقال للمرأة لقد ثبت عليك الزنا؟ كلاّ، بل يقال للمرأة أنّ زوجك قد لاعنك؛ أي أقسم أربع مرات ولعن نفسه في الخامسة. فما هو قولكِ أنتِ؟ فإذا أقرّت أُقيم عليها الحد، وإذا سكتت ولم تدافع عن نفسها، فهذا بحكم الإقرار. ولكن يوضع أمامها خيار آخر، فيقال لها: أنت أيضاً تقسمين مثل زوجك أربع مرّات أنّه كاذب، وتقولين في الخامسة أن لعنة الله عليَّ إن كان زوجي صادقاً.

فإذا رفضت القيام بهذا العمل يتّضح إذن أنّها زنت وتُعاقب. ولكن إذا أرادت الدفاع عن نفسها فما هو العمل؟ أي أنّ الرجل أقسم أربع مرات ولعن نفسه إن كان كاذباً، وكذا أقسمت المرأة أربع مرات أنّ زوجها كاذب، وقالت في الخامسة أن لعنة الله عليها إن كان زوجها صادقاً. فما هو حكم الإسلام في مثل هذه الحالة؟ هل يعتبر الرجل هنا بحكم القاذف فيُجلد؟ كلا. وهل تعتبر المرأة مذنبة فيقام عليها الحد، وهو الرجم؟ كلا. فما العمل إذن؟.

يقول الإسلام هنا: ما دام الأمر قد بلَغ هذا الحد، يجب التفريق بينهما ولا داعي للطلاق؛ لأنّ هذا العمل بحكم الطلاق، وتنفسخ العلاقة الزوجية بينهما إلى الأبد. وهذا يسمّى في الفقه بـ «اللعان» أو «الملاعنة».

وقعت مثل هذه الواقعة في زمن الرسول ﷺ وبحضوره، ويقال إنّ شأن نزول هذه الآية كان فيها. إذ جاء إلى رسول الله ﷺ ذات يوم رجل اسمه هلال بن أُميّة وهو في حالة ذعر وقال: يا رسول الله رأيت بعيني زوجتي في حالة زنا مع الرجل الفلاني. فأعرض عنه الرسول ﷺ، وأعاد الرجل كلامه ثانية، وقال في الثالثة: الله يعلم أنّني صادق غير كاذب. ثم نزلت هذه الآيات، ودعا الرسول ﷺ هلال بن أُميّة، ودعا زوجته أيضاً. وكانت زوجته من أعيان المدينة وقبيلتها كبيرة وأقاربها كثيرون. وكان هلال قد جاء أيضاً مع قومه وأبناء قبيلته.

كانت تلك المرّة الأولى التي يجري فيها رسول الله ﷺ اللعان، فأمر الرجل أن يقسم بالله أربع مرّات، ويجعل لعنة الله عليه في الخامسة إن كان من الكاذبين. فتقدّم الرجل ممتثلاً أمر الرسول وادّعى ما قاله له. وقيل للمرأة

اقسمي أربع مرّات أنّ زوجك كاذب. سكتت المرأة أوّل الأمر وانعقد لسانها عن الكلام، وأوشكت على الاعتراف لكنها نظرت في وجوه قومها وقالت مع نفسها: لا أفعل ما يجلب على قومي العار ويلحق بهم الانكسار.

حينما أقسم هلال بن أُميّة أربع مرات وأراد أن يلعن نفسه في الخامسة، قال له رسول الله ﷺ: اعلم أنّ عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا، إيّاك وأن تكون رميت زوجتك بهذه التهمة كذباً؟ واتّق الله! فقال: يا رسول الله، الله يعلم أنّني غير كاذب، وكذلك المرأة حينما اقسمت أربع مرّات أنّ زوجها كاذب، وأرادت أن تقول: غضب الله عليَّ... قال لها رسول الله ﷺ: اتّقِ الله، إنّ ما في الآخرة أشدّ ممّا في الدنيا. إيّاك أن تكذّبي كلام زوجك إن كان قوله حقّاً. وهنا انعقد لسانها وأوشكت على الإقرار، لكنها قالت أخيراً: لعنة الله عليَّ إن كان من الصادقين. وعند ذاك قال لهما الرسول: أنتما من هذه الساعة لستما زوجاً لبعضكما. ثمّ جاء في الآية التالية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[1].

أي لولا فضل الله عليكم لأنزل أحكاماً أشدّ. قد تتصورون أنّ الأحكام التي أنزلناها عليكم هنا أحكاماً شديدة، ولكن اعلموا أنّها من فضل الله ورحمته ومظهر قبوله التوبة، وأنّ هذا ممّا تقتضيه مصلحتكم.

تأتي بعد هذه الآية الآيات المسمّاة بآيات «الإفك». والإفك هو التهمة، وتتعلق هذه القضية بحدث تاريخي وهو أنّ إحدى زوجات الرسول ﷺ اتّهمت خلال واقعة تاريخية من قبل المنافقين. ويعتقد أهل السنّة أن تلك المرأة هي عائشة، بينما يرى بعض الشيعة أنّها مارية القبطية. ولعلكم تظنون أنّ القضية يجب أن تكون بالعكس، أي أن يقول الشيعة أنّها عائشة، ويقول السنّة أنّها مارية. فلماذا يؤكّد السنّة أنّها كانت عائشة، ويصر المتعصّبون من الشيعة أنّها كانت مارية؟.

سبب ذلك يعود إلى أن هذه التهمة اتخذت في ما بعد ـ سواء من وجهة

---

(١) سورة النور: ١٠.

نظر عامّة الناس، أم في رأي الآيات القرآنية بشأن تلك المرأة المتّهمة ـ صيغة تبعث على الفخر بحيث لم يبق معها شكّ في أنّ التهمة الموجّهة إلى تلك المرأة كانت كذباً وأنّها قد زكيت والقضية لا أساس لها من الصحّة. وهذا هوسبب تأكيد أهل السنّة أنّ تلك المرأة المتهمة التي ثبتت نزاهتها عن هذا العمل القبيح مائة بالمائة كانت عائشة، وحرص بعض الشيعة على إثبات مثل هذه المفخرة لمارية القبطية.

أما تفاصيل تلك القضية وآيات الإفك التي نزلت فيها فسنرجِئُ الحديث عنها إلى مجلس آخر إن شاء الله. وصلّى الله عليه وآله الطاهرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

تسمّى هذه الآيات بآيات الإفك. والإفك معناه الكذب العظيم الذي اختلقه بعض المنافقين بشأن زوجة رسول الله لغرض الإساءة إليه ﷺ[2]. يُستفاد من هذه الآيات قضايا تربوية واجتماعية ذات أهمية بالغة، وقد نتعرّض نحن في عصرنا الحالي لابتلاءات من هذا القبيل.

تؤكّد الآية أنّ الذين جاؤوا بهذا الإفك هم عصابة منكم. وبهذا الأسلوب ينبّه القرآن المسلمين والمؤمنين إلى وجود مجاميع بينهم تتظاهر بالإسلام ولكنّها تستهدف من وراء ذلك مقاصد خطيرة. أي أنّ القرآن يريد القول أن اختلاق هذا الإفك على يد تلك الفئة لم يكن عن جهل أو غفلة، بل كان عملاً مقصوداً ومبيّناً يرمي إلى الإساءة إلى الرسول وانتهاك حرمته، إلاّ أنّهم لم يحقّقوا غايتهم تلك.

---

(١) سورة النور: ١١ ـ ١٢.

(٢) خلاصة هذه القصة نقلاً عن أهل السنّة: أنّ عائشة زوجة الرسول دخلت بستاناً لقضاء الحاجة أثناء عودة المسلمين من إحدى غزواتهم، وهناك سقطت عصابة رأسها فظلت تبحث عنها وتأخّرت ـ نتيجة ذلك ـ عن القافلة، ثمّ أنّها دخلت المدينة متأخّرة برفقة صفوان الذي كان يسير خلف القافلة لمساعدة المتخلّفين عنها. وفي أعقاب هذه الحادثة روّج المنافقون تهماً ضد زوجة الرسول ﷺ.

يذكر القرآن أنّ هؤلاء عصبة منكم، وكان قصدهم شرّاً لكن النتيجة جاءت خيراً: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. لا تظنّوا أنّ في هذه الحادثة انتكاسة لكن أنتم أيّها المسلمون، أبداً بل أنّ هذه القصة مع ما فيها من مرارة كانت خيراً للمسلمين. ولكن لماذا يعتبر القرآن هذه القصّة ذات مردود إيجابي مع أنّها كانت تنطوي على مرارة فظيعة؟ هذه القصّة وضعت حدّاً لانتهاك حرمة الرسول ﷺ وبقيت تتداولها الألسن أيّاماً متوالية ـ حوالي أربعين يوماً ـ إلى أن نزل الوحي وتوضّحت الأمور تدريجياً. والله يعلم بما جرى على الرسول والمقرّبين إليه خلال هذه المدّة!.

أمّا قول القرآن أنّه خير فيُعزى إلى سببين هما:

أولاً: أنّ هذه الفئة المنافقة قد كُشف عنها. من أكبر المخاطر التي تهدد المجتمعات هو تداخل الخنادق واختلاط الصفوف. فالمنافقون والمؤمنون كلّهم في خندق واحد. وما دامت الأوضاع مستقرّة فلا خطر في ذلك. ولكن ما أن يتعرّض ذلك المجتمع إلى هزّة حتّى يُلحق به المنافقون أفدح الأضرار. ولهذا فالأحداث التي تمرّ بالمجتمع تؤدّي إلى الكشف عن الوجوه.

وإذا وقع للمجتمع بلاء يقف المؤمنون إلى جانب المؤمنين، ويمزّق المنافقون حجب نفاقهم ويقفون في الخندق الذي ينبغي لهم الوقوف فيه. هذا خير كبير للمجتمع.

المنافقون الذين وضعوا هذه القصّة بقي لهم منها ـ حسب تعبير القرآن ـ «الإثم» فقط، والإثم بمعنى وصمة الذنب. فأولئك المنافقون قد سقطوا من الاعتبار ما بقوا على قيد الحياة.

ثانياً: إنّ الذين لفّقوا هذه التهمة لفّقوها عن وعي، إلاّ أن سائر المسلمين صاروا كأداة لهذه الزمرة، فأكثرية المسلمين مع ما تتّصف به من الإخلاص والإيمان ونزاهتهم عن الأغراض والمساوىء إلاّ أنّهم اتّخذوا من قبل هذه الزمرة كأداة إعلامية ولكن لا عن قصد أو عن وعي. وهذا ما يبيّنه القرآن بشكل واضح.

من المخاطر الكبيرة التي تواجهها المجتمعات أن يكون أفرادها غير

واعين. في مثل هذه الحادثة يتّخذهم العدو ـ إن كان ذكياً ـ ضد أبناء مجتمعهم. فهو يختلق قصّة ثم يلقيها في أفواه هؤلاء الناس غير الواعين فيشيعونها بأنفسهم.

الكلام الذي يختلقه العدو من واجبكم وأده في مهده؛ لأنّ العدو يستهدف أساساً أشاعته، والواجب يحتّم عليكم عدم نقل ذلك الكلام لأي كان حتّى تُحبطوا بصمتكم هدف العدو[١].

الفائدة الثانية من هذه القصّة هي أنّ المسلمين أدركوا الخطأ الذي وقعوا فيه، ممّا أدّى إلى إيجاد الوعي بينهم. أيّ أنّهم وقفوا على حقيقة تلك الفئة من جهة، وعرفوا موضع خطئهم من جهة أخرى.

في أحد الأيّام بعد أن انتهيت من درس التفسير جاءني صديق من أحد الأحياء البعيدة في طهران ـ ولا أُريد هنا حتّى ذكر اسم ذلك الحيّ ـ ودعاني إلى الركوب معه في سيارته القديمة، وفي أثناء الطريق قال لي: هل تعلم لماذا جئت بك إلى هنا؟ لقد سمعت أنهم في مسجد الجواد عليه السلام لا يقولون في

---

(١) أُشيع مثلاً في وقت ما، وربما لا زال شائعاً حتّى الآن بين البعض أنّ الفلسطينيين نواصب، والنواصب غير السنّة. السنّي هو الذي يعتبر أبا بكر هو الخليفة الأول وعلياً عليه السلام هو الخليفة الرابع، ولا يعتقد أنّ الرسول نصب خليفة من بعده، وأنّ الناس قد اختاروا أبا بكر. السنّي يحب أمير المؤمنين لأنّه يعتبره الخليفة الرابع. أمّا الناصبي فهو من يكره علياً. السنّي مسلم، لكن الناصبي كافر ونجس، ونحن لا نستطيع معاملة الناصبي كمسلم. ويشيع البعض أن الفلسطينيين نواصب. والبعض الآخر ينقل كلامهم إلى الآخرين، وغيره ينقله إلى شخص آخر وهكذا. فإذا كانوا نواصب فهم كفرة، هم واليهود في خانةٍ واحدة. ومن المؤسف أنّ أحداً لا يدرك أنّ هذا الكلام من وضع اليهود الذين يختلقون لكلّ موقف كلاماً لأجل إزالة مشاعر التعاطف مع الفلسطينيين.
الصهاينة يعلمون أنّ الإيرانيين شيعة ويحبّون علياً ويعتقدون أنّ كل من يبغضه كافر. في حين أنّنا عندما كنا في مكة في إحدى السنوات كنّا نلتقي هناك بالكثير من الفلسطينيين، وجاءنا أحدهم وسألنا: ما حكم المسألة الفلانية في الحج؟ ثمّ أنّه قال: أنا شيعي، ورفاقي هؤلاء سنّة. فاتّضح أنّ من بينهم شيعة أيضاً. ليلى خالد (فدائية فلسطينية شاركت في عدّة عمليات خطف طائرات) هذه المرأة المعروفة، شيعية، وقد ذكرت ذلك بنفسها خلال عدّة لقاءات أُجريت معها في مصر. إلاّ أنّ العدو الصهيوني يسخّر عملاءه ليشيعوا أنّ الفلسطينيين نواصب.
في مثل هذه الحالات يحذّر القرآن المسلمين من أمثال هذه الفئة التي تسيء إلى جماعة منكم تلفظ بالشهادتين كما تلفظون بها أنتم.

الأذان «أشهد أنّ علياً ولي الله». قلت له: لنذهب ونرى هل أنّهم حقّاً لا يقولون ذلك، وأردفت قائلاً: رحم الله والديك أن أجهدت نفسك لترى على أدنى الاحتمالات هل أنهم يقولون أم لا يقولون.

ولكن أحياناً يأتي شخص ويقول بشأن مسجد الجواد مثلاً: أنهم لا يقولون فيه: «أشهد أنّ علياً ولي الله»، ويقول شخص آخر: أنا سمعت أيضاً أنهم هناك لا يقولون «أشهد أنّ علياً ولي الله»، حتّى تبلغ الأمور حداً تجد فيه كل الناس يقولون: سمعنا أنّ مسجد الجواد لا تذكر فيه جملة «أشهد أنّ علياً ولي الله» في الأذان.

ولكن ما رأي الإسلام في هذا؟ الإسلام يقول: متى ما سمعت مثل هذا الكلام لا تذكره أمام أحد أبداً. إن كنت في شكّ منه اذهب وتحرّاه بنفسك. وإذا لم تكن لديك رغبة في التحقق من صحّة الأمر لماذا تذيعه للآخرين؟ لا يحقّ لك أبداً إفشاؤه.

كانت هناك قرية نصف أهاليها من المسلمين والنصف الآخر يهود، وكانت تبعد عن «جتل»[1] مسافة فرسخين. وكان اليهود يدّعون أنّ «جتل» لهم وأنّهم هم الذين بنوه. والمسلمون يقولون بل هو لنا. اليهود يقولون لنا لأنّه لا منارة فيه. والمسلمون يقولون هو لنا لأنّ فيه منارة. واحتدم الصراع بينهم وقُتل ناس وجُرح آخرون. ولكن لم تكن لديهم عزيمة تكفي ليذهبوا ويروا هل فيه منارة أم لا.

الفائدة الثانية المستقاة من قصّة الإفك هي توعية المسلمين. والقرآن ذكرها لتبقى على الدوام يقرؤها الناس باستمرار ويأخذوا منها العبر. فإيّاك وإن تصبح أداة وإذاعة للآخرين.

الله وحده يعلم كم اختلق اليهود ـ بالدرجة الأولى ـ والبهائيون الذين كنوا أداة بأيديهم من أمثال هذه القصص. أحياناً يشيع اليهودي أو المسيحي شيئاً

---

(١) يبدو أنّه اسم لمزار.

ضد المسملين وينتشر بين الناس حتّى يجد طريقه إلى الكتب تدريجياً ويصبح عند المسلمين من المسلمّات مثل قصّة إحراق الكتب في الاسكندرية.

بعد أن فتح الاسكندر بلدان مصر وإيران والهند. بنى مدناً باسمه أي «الاسكندرية» وتوجّه إليها العلماء وأُنشئت فيها مكتبات كانت في الواقع مدارس وتضم كتباً كثيرة. وبالنسبة لمكتبة الاسكندرية في مصر كانت قد تعرضت ـ كما يؤكد تاريخ المسلمين وحتّى تاريخ المسيحية ـ للنهب والإحراق عدّة مرات قبل أن يفتحها المسلمون. فبعد أن اعتنق امبراطور روما الشرقية الديانة المسيحية. خَرّب مدرسة ومكتبة الاسكندرية لأنه كان يذهب إلى أن الفلسفة تتعارض مع الديانة ولا بدّ أنكم على علم بأنّ سبعة من فلاسفة الاسكندرية التجأوا إلى إيران؛ إلى بلاط انو شيروان. ومعنى هذا أنّه لم تبق هناك مكتبة.

أثبت اليوم مؤرخون مسيحيون مثل «ويل ديورانت» وغيره أنّ مكتبة الاسكندرية كانت قد تعرّضت لحوادث مرّات متعددة قبل أن يفتح المسلمون الاسكندرية؛ وحينما دخلها المسلمون لم تكن فيها مكتبة.

ومن جهة أُخرى فإنَّ الفتوحات الإسلامية سواء في إيران أم في مصر أم أماكن أخرى قد دونَّ المؤرخون المسيحيون والمسلمون وقائها بالتفصيل، وخاصة فتح الاسكندرية الذي أرّخ وقائعه المؤرخون المسيحيّون بالتفصيل. وبعد ذلك كُتبت في القرنين الثاني والثالث للهجرة كتب مهمّة من قبيل «تاريخ اليعقوبي» و«تاريخ الطبري» و«فتوح البلدان» للبلاذري التي تتحدّث معظم مواضيعها عن أحداث القرن الأول الهجري، وسلسلة أسنادها مرتّبة ومنظمة. ولم يذكر أي مؤرخ وجود مكتبة في الاسكندرية أحرقها المسلمون.

قال «ويل ديورانت» في هذا الصدد: «كان هناك قس يقيم في الاسكندرية وقد دوّن كلّ تفاصيل وقائع فتح الاسكندرية، والكتاب موجود حالياً، وليس فيه أي ذكر لإحراق المكتبة».

ولكن ذكر شخص أو شخصان في القرنين السادس والسابع للهجرة،

أي بعد مضي ستّة قرون ـ ولم يكن هذان من المؤرخين، وإنّما من اتباع الديانة المسيحية ـ إنّ تلك المكتبة أُحرقت أثناء فتح الاسكندرية على يد المسلمين، وكان غرضها دفع التهمة عن المسيحية، وقالا في ذلك الصدد: أنّ عمرو بن العاص حين دخل الاسكندرية وجد فيها مكتبة ضخمة، فكتب إلى الخليفة لمعرفة رأيه في ما يجب فعله لتلك المكتبة. فكتب إليه الخليفة يقول: إن كان ما فيها موافقاً للقرآن، فالقرآن حسبنا، وإن لم يكن موافقاً، فماذا نفعل بما يخالف القرآن! أحرقها كلّها. فأحرق عمرو بن العاص المكتبة.

ثمّ أنّ المسلمين أنفسهم نقلوا في ما بعد في القرنين الثامن والتاسع تلك القصة من تلك الكتب من غير أن يفكروا في أنّ تلك القضية لو كانت صحيحة لنقلها مؤرخو القرن الأول.

ثمّة قرائن أُخرى دالّة على كذب هذه القصّة. وقد سبق لي وأن تحدّثت في ثلاثة مجالس عن أكذوبة إحراق مكتبة الاسكندرية[١]. وكتب شبلي نعمان رسالة في هذا الموضوع. والمحقّقون والعلماء والمؤرخون لا يشكّون في كذب هذه القصّة.

إلاّ أنّ الأعداء وأدواتهم ينقلون هذه الأكاذيب عن وعي والأصدقاء ينقلونها بلا وعي حتّى بلغ الأمر مرحلة حينما يريدون الاتيان بمثال في المنطق «في كتاب الفلسفة والمنطق للصف السادس الإعدادي»»[٢] عن القضية المنفصلة يقولون نظير ما قاله خليفة المسلمين عن مكتبة الاسكندرية «إن كان ما فيها موافق للقرآن، حسبنا القرآن، وإن كان ما فيها مخالف للقرآن، فماذا نصنع بما يخالف القرآن، إذن أحرقها». أوردوا في كتب المرحلة الإعدادية أنّ المسلمين كان دأبهم إحراق الكتب.

ذكر شبيلي نعمان أنّ الإنجليز بعدما احتلوا الهند وانشأوا فيها المدارس،

---

(١) راجع مقالة «إحراق المكتبات في إيران ومصر» في كتاب «الإسلام وإيران».
(٢) في العهد الشاهنشاهي.

وضعوا لها مناهج دراسية بأنفسهم، وحينما أرادوا التمثيل في المنطق للقضية الحقيقية المنفصلة ذكروا هذا المثل بالذات ليغرسوا في أذهان الطلبة المسلمين والهندوس بأنّهم أُمّة تحرق الكتب منذ القديم. «هذه الأُمور يذكرها شبلي نعمان وبعد أن وجدتها في كتب مدارسنا الإعدادية أدركت حقيقة الأمر بشكل جيّد».

ثم أنّنا تناقلناها لساناً عن لسان بدون التأكد من صحّتها. بحيث لو أنّنا قلنا بكذبها لأعلن البعض استغرابهم وقالوا ما كنّا نحسب أنّ هذه القضية كاذبة.

وقول القرآن: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يريد منه أنّ هذا درس لكم أيّها المسلمون اقرأوا قرآنكم وخذوا منه العبر لكي لا تكونوا بعدها أبواقاً إعلامية للأعداء ولما يبثّونه من إشاعات. ثم يقول: إنّ الذين جاؤوا بهذه القصّة لحقتهم عواقب ذنبهم كلّ حسب ما ارتكب من الذنب، وإنّ إحدهم قد تحمّل القسم الأعظم من ذلك الإثم «والمقصود به عبد الله بن أُبي بن سلول» ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وبالإضافة إلى سوء المصير والسمعة في هذه الدنيا حيث بقي يُسمّى برئيس المنافقين ما دامت الدنيا. ويذيقه الله أيضاً عظيم العذاب في الآخرة.

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

كان من الممكن أن يعبّر القرآن عن هذا المعنى بالقول: أيّها المسلمون لماذا أسأتم الظن بإخوانكم المسلمين لمّا سمعتم هذا الخبر ولم تحسنوا الظن بهم؟ ولكنه لو عرضه بهذا المعنى لكان قد عرض موضوعاً في غاية البساطة، ولكنه قال: لماذا أسأتم الظن بأنفسكم؟ أي يجب أن تفهموا أنّكم بناء واحد وجسد واحد. وعلى المؤمنين أن يعتبروا أنفسهم أعضاء في جسد واحد؛ فإذا نُسبت لأحدهم تهمة تكون وكأنّها موجهة ضدهم كافّة، وإنّ عرض أي مسلم كأنّه عرض الجميع.

النقطة الثانية هي أنّ القرآن لم يقل: لماذا لم تظنّوا بأنفسكم خيراً؟ بل قال: لماذا لم يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً؟ هنا ذكر

الرجل والمرأة سوية، أي لا فرق بين الرجل والمرأة. ثم يدخل كلمة الإيمان في السياق، أي أنّ الإيمان هو ملاك الوحدة والاتّحاد. أي أنّ المؤمنين يُعتبرون نفساً واحدة انطلاقاً من مبدأ الإيمان. أي أنّه يريد القول أيّها المؤمنون والمؤمنات لو وجهت إلى أحدكم تهمة، هل يذيعها ويتحدّث بها حيثما جلس ويقول نُسِبَت إليَّ مثل هذه التُهمة؟ كيف إذا نُسبت لأحدكم تهمة يفهم أنّه يجب عليه التزام الصمت ولا يعمل على إشاعتها، في حين إذا نُسبت إلى إخوانه المؤمنين وأخواته المؤمنات لا يتّخذ نفس الموقف؟ ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

لماذا حينما سمعوه لم يقولوا: هذا إفك. سكت رسول الله ﷺ مدّة شهر، في حين كان المسلمون الغافلون يتناقلون تلك الأكذوبة في مجالسهم وكلّ واحد منهم يقول: سمعت كذا؟ القرآن يقول: كان ينبغي أن تقولوا: هذا إفك منذ اليوم الأول. وعليكم الآن أن تقولوا حين سماع مثل هذه الإشاعات: هذا إفك مبين.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[1]، أي أنكم ملزمون برعاية الأحكام والقوانين التي حدّدها الإسلام لسلوككم. وأية تهمة تسمعونها بحقّ أي شخص مسلم ـ ما دامت لم تثبت ـ يجب أن تعتبرونها أكذوبة، وأنّها كذب عند الله، وعبارة «عند الله» بمعنى في الأحكام الشرعيّة.

التكليف واضح جداً. فإذا سمعنا شخصاً يتّهم فرداً أو جماعة أو مؤسسة، ما هو تكليفنا؟ هل تكليفنا أن نسكت؟ أن نقول «الله أعلم»؟ أم نقول: لا ندري ربّما صحيح وربّما غير صحيح؟ أم نتحدّث في المجالس ونقول سمعنا يقولون هكذا؟ ما هو موقفنا؟ طالما لم تقم البيّنة الشرعيّة، وطالما لم يثبت لدينا شرعاً ـ كأن يشهد أربعة عدول في قضايا الزنا، وشاهدان عدلان في القضايا الأُخرى، وهذا هو معنى البيّنة الشرعيّة هنا، وعندها يترتب علينا

(١) سورة النور: ١٣.

واجب آخر ـ لا يحقّ لنا التحدّث بذلك، ولا يحقّ لنا أن نقول: لا نعم، أو نقول ربّما للقضية أساس أو ربّما لا أساس لها، ولا يحقّ لنا أن نسكت، بل يجب أن نكذّب الخبر ريثما يثبت شرعاً وحينها يجب علينا التصدّي لتلك الظاهرة السلبية.

يقع علينا بطبيعة الحال في كلّ حالة تكليف معيّن. في بعض المواقف يجب علينا الوقوف بوجه ذلك العمل، وفي مواقف أُخرى يجب على الحاكم الشرعي اتّخاذ الإجراءات الرادعة كقضية الزنا مثلاً. والقرآن يقول: أنتم أيّها المسلمون إذا تناقلتم مثل هذه الإشاعات ترتكبون إثماً عظيماً، إلاّ أنّ الله غفر لكم هذا الذنب، وعليكم أن تحاذروا من ارتكاب مثل هذا العمل مستقبلاً. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ولكن أي ذنب هذا الذي انهمكنا فيه، ونقلناه؟ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[2] وكنتم تظنونه أمراً هيّناً: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[3] لأنّ القضية هنا تخصّ كرامة المسلمين، وفي هذا المورد بالخصوص يمسّ بكرامة الرسول ﷺ. فلماذا حينما سمعتموه لم تقولوا لا يحقّ لنا الخوض في هذا الحديث؟ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾[4] ولا يقتصر الموقف عند حدّ الامتناع عن الكلام، بل لا بدّ من تكذيب الخبر: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[5].

إنّ الله يعظم أيّها المسلمون أن لا تعودوا لمثل هذا الذنب: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾[6] ويجب عليكم أن لا تكونوا أداة إعلامية تشيع ما يلقيه

---

(١) سورة النور: ١٤.
(٢) سورة النور: ١٥.
(٣) سورة النور: ١٥.
(٤) سورة النور: ١٦.
(٥) سورة النور: ١٦.
(٦) سورة النور: ١٧.

العدو في الأفواه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١] فهو تعالى عالم بكلّ شيء وأنزل عليكم هذه الآيات على أساس حكمته.

جاء في الأخبار حديث مفاده: إذا رأيتم أهل البدعة عليكم بالتصدّي لهم.

الجميع مكلّفون بالتصدّي للبدعة. مثلاً الصلاة على النبي مستحبّة في كلّ زمان ومكان. وقد ينهض أحد الحاضرين في مجلس الخطابة ويرفع صوته بالصلاة على النبي لأجل إزالة حالة الملل، هذا أمر جيّد. ولكن إذا توهّم أحد أنّ هذه الممارسة سنّة إسلامية أو حكم شرعي، فهذه بدعة وليست من الدين في شيء. وليس في الإسلام أمر يقضي بالصلاة على النبي أثناء خطبة الخطيب.

توجد لدى الإيرانيين عادة يا حبّذا لو تُجتنب؛ وهي الصلاة على النبي عند إضاءة المصابيح. وقد يقول قائل: إنَّ الصلاة على النبيّ مستحبّة في كلّ أوان. وأنا أيضاً أؤيّد صحّة ذلك. إلاّ أنّ لهذا العمل ماضٍ سيّء في إيران وهو عبادة النار وتكريم النار.

ولئلاّ تتداخل قضية احترام إضاءة المصباح مع مسألة عبادة النار.

يأمر الإسلام اتباعه إذا صلّى أحدهم أن ينشدَّ بكلّ وجوده إلى الله. ومع ذلك يكره للمصلي الصلاة في مقابل شخص جالس لأنّه تشمّ منه رائحة عبادة الإنسان. كما ويُكره أن تكون هناك صورة أمام المصلّي بسبب ما تفوح به من رائحة عبادة الأشكال. ويكره أيضاً وجود مصباح أمام المصلّي لكي لا تشمّ منه رائحة عبادة النار. ومن الأفضل أن لا يصلّي على النبي عند إضاءة المصابيح في بلدٍ كان أهله في الماضي يعبدون النار. وأُريد من كلامي هذا الإشارة إلى أنّ مثل هذا العمل يسمّى «بدعة».

هناك أشياء كثيرة يصدّق عليها مفهوم البدعة، ولكنها شائعة بين الناس وخاصّة عند النساء مثل: حساء أبي الدرداء، ومائدة أبي الفضل. هذه

---

(١) سورة النور: ١٨.

المسمّيات والممارسات لا وجود لها في الإسلام، بلا أنّ الإسلام يأمر بالإنفاق وبإطعام الناس، ثم يُهدى ثواب هذا العمل للرسول ﷺ أو لأمير المؤمنين أو للزهراء أو للحسن أو للحسين، أو أي واحد من الأئمة، أو لأبي الفضل العباس صلوات الله عليهم ولا مانع من إهداء ثوابه لأموات باذل الطعام. ولكن إذا أعدّ شخص في داره مائدة مع كل رسومها وسننها ـ التي لا أعلم تفاصيلها ـ وتصوّر أنّ ذلك من أحكام الإسلام فهذه بدعة يجب القضاء عليها.

هناك أشخاص يدخلون بدعاً في الدين؛ كان يأتي شخص ويقول: أنا النائب الخاص لإمام الزمان، مثل علي محمد الباب، هذا الشخص يسمّى من أهل البدعة. ورد في الحديث: «إذا لقيتم أهل البدعة باهتوهم»؛ أي ناقشوهم وادحضوا دليلهم، مثلما أبهت إبراهيم عليه السلام ذلك الشخص الكافر في زمانه: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[1].

بعض الناس من ذوي الثقافة المحدودة يفسّر المباهتة هنا بمعنى نسبة التهم والأكاذيب إليهم، بذريعة أنّ أهل البدعة أعداء الله وأنا أنسب إليهم الكذب. ثمّ أنّه ينسب تهمة البدعة لأيّ شخص يضمر له عداءً شخصياً ثمّ يبدأ بتلفيق التهم ضدّه. لاحظوا لو ابتلي المجتمع بمثل هذا الداء بحيث يعتبر الشخص خصومة أهل بدعة ويفسّر حديث «باهتوهم» بمثل هذا التفسير، ما الذي سيحلّ بذلك المجتمع؟ تلاحظون حينها تلفيق الأكاذيب الواحدة تلو الأخرى.

لقيني ذات يوم عالم كبير «والعالم يخطىء أحياناً» وقال: لقد سمعت أنّ رجلاً ـ وسمّى شخصاً بعينه وكان رجلاً متديّناً بمعنى الكملة ـ يقول «لم أكن أود ذكر الكلام الذي قاله لكنّني مضطر لذكره لتدركوا مدى ضحالة مجتمعنا» لقد كان خيراً أن محسن جنين الزهراء قد أُسقط لأنّه لو كان قد بقي حيّاً لخلق الإسلام اثني عشر مصيبة أُخرى! فقلت له: ولماذا تتلفّظ بهذا الكلام بحقّ

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

شخص مسلم؟ فأنا أعرف هذا الرجل عن كثب هو عندما تُذكر فضائل الأئمة يبكي.

لاحظوا كم يلفّق الشخص ضد الآخر. المجتمع الذي يلفّق الأكاذيب والتهم والبهتان وعده الله بالعذاب. جاء في الآية التالية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

كما تتضمّن الآيات اللاحقة مزيداً من التأكيد على المؤمنين أن لا يتّبعوا الأكاذيب التي يبثّها الآخرون ويصبحون جهازاً إعلامياً للتشهير بأنفسهم.

(١) سورة النور: ١٩.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[1].

ذكرنا أنّ القرآن يؤكّد كثيراً على وجوب نقاء الأجواء الإسلامية من التهمة والافتراء والبهتان والقول السيّء. والمسملون مكلّفون بوأد كلّ ما يسمعونه عن إخوانهم وأخواتهم المؤمنات طالما لم يبلغ حدّ اليقين القطعي ـ لا بمجرّد الظن والتصوّر ـ وأن لا يتناقلوه حتّى بصورة «لقد سمعت» ما دامت ليست فيه أيّة بيّنة شرعيّة، لأنّ نقل الكلام على هيئة «سمعتُ أنَّ...» هو نوع من إشاعته أيضاً. والإسلام يرفض أيّ نوع من الإشاعة لمثل هذه الأقاويل والأخبار القذرة الدنيئة فقد جاء في الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنّكم لا تعلمون مدى جسامة هذه الجريمة ولا تعلمون حجم العقوبة المقرّرة لها.

الإسلام يريد أن تتوطّد أُسس المجتمع الإسلامي على أساس الثقة المتبادلة وحسن الظن والقول الحسن، ولهذا السبب حرّم الغيبة إلى الحدّ الذي جعل القرآن الكريم يقول عنها: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ

---

(١) سورة النور: ١٩ ـ ٢١.

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[١] وعلى هذا الأساس يؤكّد القرآن بصيغ وأساليب شتّى على هذه القضية، ومن جملة ذلك ما ورد في الآية الشريفة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذه الآية من الآيات التي تحمل معنيين وكلاهما صحيح.

أحد الذنوب الكبيرة التي توعّد القرآن بالعذاب الأليم جزاءً لها هي إشاعة الفحشاء بين الناس. هناك من يروّد لإشاعة الفساد بين الناس لأغراض ماديّة أو لأطماع أُخرى. وأكثر هذه الأغراض في عصرنا الحاضر أغراض استعمارية. يريدون إشاعة الفحشاء بين الناس لأنّه ما مِن شيء يضعف العزائم مثل شيوع الفساد والفحشاء. إذا كنت ترمي إلى صرف شباب بلد ما عن القضايا الجادّة والمصيرية وتُلهيهم عن النشاط والعمل المثمر الذي يهدّد مصالح القوى الاستعمارية، ما عليك إلاّ أن تشيع الفساد وتكثر من المشروبات الكحولية، والملاهي والمراقص وفسح المجال أمام سبل الاتصال والعلاقات بين الفتيان والفتيات. وبنفس القدر الذي يضّعف فيه الهيروئين والترياق القوى الجسمية والروحية للشباب، ويوهن مشاعر الكرامة والرجولة والقوّة منهم، كذلك بفعل الفساد في المجتمع.

لدى الأمريكيين برنامج يستهدف إفساد العالم بأسره وخلاصته: انشُر الفساد أكثر تكون مرتاح البال من الشعوب. يُقال أن مدير إحدى المجلات كتب في عدد هذا الاسبوع[٢].

«سأقوم بعملٍ تكون نتيجته أن لا توجد في طهران حتّى عشر سنوات أُخرى فتاة باكرة واحدة من سن العاشرة فما فوق». وهذا كلّه يجري وفق خطط وبرامج.

أما السبب الذي جَعل الإسلام يؤكد على أهمية العفّة فهو أنّ الطاقات

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٢) نلفت نظر القارىء إلى أنّ هذه المحاضرات ألقيت في العهد الشاهنشاهي البائد.

الإنسانية كامنة فيها. قد لا يصدق أحدنا أنّ الإرادة الإنسانية كامنة في الجهاز التناسلي، لكن حقيقة الأمر هي هذه.

الإسلام لا يعارض العلاقات الجنسية ولكن يريدها أن تكون ضمن إطار العائلة، ولا يؤيّد ما تذهب إليه الكنيسة والمذهب الكاثوليكي. إلاّ أنّه لا يجيزه خارج الزواج الشرعي.

ويستهدف الإسلام من وراء هذا، المحافظة على روح النخوة والنبل والشهامة والإنسانية والشرف عند الرجل المسلم والمرأة المسلمة. وسنتحدث بمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع في الآيات التالية الواردة بشأن الحجاب.

يقول القرآن الكريم عمّن يريد إشاعة الفاحشة لقتل هذه الروح الإنسانية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد حدّدت الآية نوع العذاب الأليم للإشارة إلى أهمية وحساسية هذه القضية في الرؤية الإسلامية. هذا تفسير للآية التي تتحدّث عن إشاعة الفحشاء بين أهل الإيمان.

أشير هنا إلى قضية لغوية حول معنى حرف الجر «في» لإلقاء الضوء على المعنى الثاني للآية. هذا الحرف يأتي أحياناً بمعنى يشير إلى الظرف المكاني، وأحياناً بمعنى «بشأن» أو «فيما يخصّ». ويمكن تفسير هذه الآية على الوجهين وهو تفسير صحيح، وينطبق كلاهما مع سياق آيات الإفك. وبهذا يكون المعنى الثاني للآية هو: (الذين يحبون إشاعة الفاحشة عن أهل الإيمان) أي ليس المراد: الذين يحبّون إشاعة الفساد ذاته بين الذين آمنوا، بل أن تشيع تهمة الفساد بشأن الذين آمنوا، أي أن يُساء إلى سمعتهم.

هناك عدد من الناس لديهم ما يمكن أن يصطلح عليه علم النفس اليوم باسم «العقدة»؛ فحيثما شاهدوا شخصاً له مكانة بين الناس يبادرون إلى إشاعة ما ينتقص منه حسداً منهم له لعدم قدرتهم على مجاراته. يقولون في أنفسهم: ما دمنا لا نستطيع بلوغ منزلته إذن فلنحاول الهبوط به. والطريق إلى ذلك يتمّ بمنتهى الدناءة عبر تلفيق الإشاعات ضدّه. ولا شكَّ في أنّ الإثم الناتج عن هذا العمل لا يعلم مداه إلاّ الله!.

قال رسول الله ﷺ ذات مرّة لأصحابه: «ألا أخبركم بشرّ الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذي يمنع رفده ويضرب عبده ويتزود وحده، فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا.

ثم قال: ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذي لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فظنّوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شرّ من هذا، ثم قال ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال المتفحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمن لعنهم وإذا ذكروه لعنوه»[1].

وإلى هنا توقّف الرسول. ومعنى هذا أنّه لا يوجد من هو شرّ من هذا.

إذن فالمعنى الثاني للآية هو أنّ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة بشأن الذين آمنوا لهم عذاب أليم. ثم يقول: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾. لم يقولوا لنا سابقاً أنّ لكلّ ذنب عذاب في الدنيا والآخرة، بل وأنّ الكثير من الذنوب لا عذاب لها في الدنيا. ولكن لكلّ ذنب عقوبة في الآخرة. إلاّ أنّ ثمّة ذنوب لا يتغاضى الله عن المعاقبة عليها حتّى في الدار الدنيا. أحد الذنوب التي لها عقوبة في الدنيا ـ ويمكن تجربة ذلك عملياً! ـ هو ذنب التهمة وهدر كرامة الآخرين. فمن يتّهم الآخرين بالباطل سيقع هو في نفس هذا المأزق يوماً ما؛ فقد يأتي شخص مثله ويتّهمه بالباطل، أو يفتضح أمره وتهدر كرامته بشكل أو آخر.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنّ الموضوع على قدر عظيم من الأهمية بحيث أنّ الله يعلم خطورته وأنتم لا تعلمونها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كان ينبغي أن يصيبكم عذاب عظيم بسبب غفلتكم هذه إلاّ أنّ الله بفضله منع عنكم ذلك.

ثم يأتي تأكيد آخر هو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وفي هذه الآية حثٌّ على عدم اتّباع الشيطان. وقد يقول قائل: نحن لا نعرف الشيطان ولا نراه، فمن أين لنا أن نفهم أنّ هذا موضع لقدم الشيطان فلا نضع قدمنا فيه؟ والحقيقة أنّ هذا الأمر

---

(١) الكافي: ج٢/ ٢٩٠، ح٧.

لا يحتاج إلى رؤية. اعرفوا الشيطان من وساوسه. فمتى ما شعرتم بوسوسة الشيطان في قلوبكم يدعوكم فيها إلى ارتكاب القبيح والمنكر، فهناك خطوات الشيطان، فهو قد تقدّمكم ويدعوكم للسير خلفه. وهذا ممّا لا يستلزم الرؤية بالعين، بل تحرز رؤيته بالقلب. ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ عليه أن يعلم أنّ من يتّبع خطوات الشيطان ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ هذا تأكيد آخر على أنّكم أيّها المسلمون كنتم على شفا حفرة في عهد الرسول، وأنّ مجتمعكم كاد أن يسقط فيها لولا وجود الرسول. واعلموا أنّه لو وقعت مثل هذه القضية في عصور أُخرى وكثرت الإشاعات التي تنتهك أعراض المسلمين، فإنّكم ستسقطون وتقعون في مهلكة كبرى «كما هو حالنا اليوم» ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي لولا فضل الله عليكم لما كان أي واحد منكم طاهراً. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الآية اللاحقة تتعلّق بهذه القضية، ولكن تتناولها من جانب آخر وهو: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] يشير القرآن هنا إلى مسألة تتعلّق بامتناع الأثرياء وأُولي الفضل عن الإنفاق. والمراد هنا بالفضل المال والثروة، وأُولوا الفضل بمعنى الأغنياء.

كلمة «الفضل» تُستخدم في يومنا هذا بمعنى الفضل العلمي فقط. ونحن اليوم إذا قلنا هذا رجل فاضل فمعناه أنّه رجل عالم. إلاّ أنّ القرآن يطلق كلمة الفاضل على من لديه مال وثروة حصل عليها من سبل مشروعة. ومن جملة ذلك ما ورد في سورة الجمعة وهي قوله: إذا قضيت الصلاة: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2] أي اذهبوا للكسب والتجارة والحصول على المال من سبل مشروعة.

يقول القرآن: على الأغنياء وأصحاب الثروة المشروعة أن لا يقسموا على

---

(١) سورة النور: ٢٢.

(٢) سورة الجمعة: ١٠.

قطع العطاء عن المستحقّين، حيث كان بعض أغنياء المسلمين يقدّمون العون إما للمهاجرين أو للمساكين أو لأقربائهم، ولكنّهم في أحد المواقف ـ ويبدو أنّه هذا الموقف ـ رأوا منهم ما يغيض ويبعث على الغضب. ولهذا قالوا: عجيب أمر هؤلاء القوم نحن نساعدهم لوجه الله وهم يستغلّون هذا العون ويرتكبون المعاصي! نحن نساعدهم وهم يلفّقون الأكاذيب ويبثّون الإشاعات! ولهذا السبب عزموا على قطع العون عمّن كانوا يساعدونه من الفقراء الذين شاركوا في قضية الإفك تلك، وأقسموا أنّهم لن يقدّموا لهم أي عون بعد الآن. إلاّ أنّ القرآن الكريم يحرص على وحدة المجتمع الإسلامي أكثر من أي شيء آخر.

مع أنّ هذه القضية كان فيها إفك وتهمة كبرى وارتكب عامة المسلمين خطأً في هذا الصدد، انبرى القرآن لإصلاح الخطأ الماضي وقال لعامّة المسلمين: أنّكم أخطأتم حينما جعلتم أنفسكم أداة لبث إشاعة تلك العصابة. وبعد أن عزم الأغنياء على قطع معوناتهم عن الفقراء، فبما أنّ قطع تلك المعونات من شأنه أن يؤدّي إلى عزل تلك الفئة عزلاً تاماً، جاء الأمر بالصفح عنهم: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾. بعد نزول هذه الآية قرّر الأغنياء عدم قطع معونتهم عمّن كانوا يقدّمونها له.

أوّد هنا الإشارة إلى نقطة معيّنة وهي أنّ من لا يعرف الإسلام لا يدرك أنّه ينتهج أسلوب المحبّة في أعلى درجاته ولكن في الموضع المناسب. كثيراً ما يصرّح المسيحيون ويشيعون أنّ الدين المسيحي دين المحبّة والإحسان والتسامح. وما الدليل على ذلك؟ الدليل هو أنّ المسيح عليه السلام قال: إذا صفعك أحد على خدّك الأيمن صَعِّر له خدك الأيسر. لكن الإسلام دين العنف والشدّة والسيف، لا صفح فيه ولا تسامح ولا محبّة.

هذا خطأ فاضح. الإسلام دين سيف ودين محبّة. دين عنف ودين لين. وفي هذا تكمن عظمة الإسلام لأنّه يبيح القسوة في موضعها والعفو في موضعه.

ولو لم يكن هذا منهج الإسلام: أي الرد على العنف بالعنف، والمنطق

بالمنطق والتعامل بالمحبّة في الموضع الصحيح، بل وحتّى استعمال أسلوب المحبّة في مواضيع الإساءة، لما قبلناه. الإسلام لا يأمر أبداً بأنّه إذا صفعك شخص متجبّر على خدّك الأيمن قدّم له خدّك الأيسر، وإنّما يقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] ولو لم يكن هذا منطق الإسلام لاعتبر ذلك منقصة فيه.

وبما أنّ الدين المسيحي دين غير عملي فقد ظهر اتباعه كأكثر الشعوب وحشية. وما انفكّ أُولئك الذين كانوا يشنون الدعايات ضد الإسلام، ويمسكون الإنجيل بأيديهم وينادون: هذا كتاب المحبّة، نراهم اليوم يقذفون عشرات أطنان «المحبّة» على فيتنام[2]. هذه هي المحبّة التي يدعوهم إليها الإنجيل! لقد تحوّلت تلك المحبّة إلى قنابل، وحتّى قنابل نابالم تحرق الأطفال والشيوخ والنساء.

الإسلام أوّل ما ينتهج أُسلوب المحبّة. ولكن حيثما وجدها لا تجدي، لا يبقى ساكتاً. قال الإمام علي عليه السلام في وصف الرسول صلى الله عليه وآله:

«طبيب دوّار بطبّه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه»[3]. أي أنّه طبيب في إحدى يديه مرهم وفي الأُخرى أدوات الجراحة. فما يمكن معالجته بالدواء عالجه بالدواء، وما تعسّر علاجه بالمرهم لا بدّ من استخدام المبضع والسكين وأدوات الكي، أي أنّه يستخدم أسلوبي الغلظة واللين.

وجاء في القرآن عند الحديث عن الدعوة إلى الله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[4]. اعلم أيّها الرسول أنّ الحسنة والسيئة لا تستويان وحتّى السيئات لا تستوي في ما بينها وكذلك الحسنات، وعليك أن تدفع السيئات بأفضل الحسنات. فإذا أساء الآخرون عليك أن تُحسن. ثم يشير إلى خصلة نفسية ويقول، أنّ عدوّك إذا أساء إليك وأحسنت

---

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) ألقيت هذه المحاضرة في أيّام الحرب الفيتنامية.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٦.

(٤) سورة فصلت: ٣٤.

أنت إليه، ستلاحظ أن خاصية الإحسان هنا في مقابل الإساءة كخاصية الكيمياء، أي أنّه يقلب ماهيّة الأشياء فتجد فجأة من كان عدوّاً لدوداً يتحول إلى موالٍ حميم.

من ذا الذي يقول أنّ الإسلام لا يأمر بالمحبّة؟! ومن ذا الذي يدّعي أنّ الإسلام ليس دين المحبّة؟! ولكن حيثما لا تجدي المحبّة، لا يهادن، بل ينتهج أسلوب الغلظة، ويستعمل السيف. نلاحظ في حياة الرسول ﷺ وفي حياة أمير المؤمنين عليه السلام الكثير من مصاديق ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

وردت في دعاء «مكارم الأخلاق» كلمات تثير الانتباه: اللّهمّ أعني على الإحسان إلى من يسيء إليَّ، وأصل رحم من قطع رحمي، ومن ذكرني في غيبتي بسوء اذكره في غيبته بخير، وما إلى ذلك من الجمل.

وللخواجة عبد الله الأنصاري في هذا المجال تعبير لطيف يقول فيه: الإساءة في مقابل الإساءة من صفات الكلاب «أي أنّ الكلب إذا عضَّ كلباً، يلتفت إليه الآخر ويعضّه. وإذا أساء إنسان لآخر ورد عليه الإساءة فهو لم يأت بشيء جديد وإنّما قلّد الكلاب. وإذا ضرب الإنسان كلباً، يدهمه ويعضّه». أمّا الإحسان في مقابل الإحسان فهو من فعل الحمير «أي إذا أحسن شخص لآخر وردّ عليه بالإحسان فإنّه لم يأت بشيء جديد فالحمار أيضاً ـ إذا حكّ بأسنانه كتف حمار آخر، فيأتي الآخر فوراً ويحك بأسنانه كتف الحمار الأول. وأن مقابلة الإحسان بالإحسان عمل تفهمه حتّى الحمير». أمّا الإحسان في مقابل الإساءة فذاك من فعل الخواجة عبد الله الأنصاري.

يقول: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأغنياء أن لا يقسموا، ولا تُثار نخوتهم الدينية هنا. إن كان أُولئك قد أساءوا فعليكم أن تُحسنوا وأن ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يا له من تعبير لطيف! يا بني الإنسان اصفحوا عن بعضكم لأنّكم مذنبون وترجون أن يصفح الله عنكم. ويجب عليكم أن تعاملوا عباد الله بمثل ما ترجونه من الله. ولا تستخدموا أسلوب الشدّة لأنّه من المحتمل معالجة

المذنبين عن طريق الإحسان، فإذا ما تعذّر ذلك يمكن حينذاك استخدام أسلوب الشدّة.

من جملة الخصال الحميدة التي كان يتّصف بها الأئمّة عليهم السلام أنّهم كانوا يشترون الرقيق ويبقونهم في دورهم مدّة من الزمن؛ لأنّ الحكمة من الرقّ في الإسلام هي أن يطوي الرقيق دورة «من الكفر إلى العتق» ويجتازون ممراً يكونون فيه خاضعين لتربية أشخاص مسلمين. وقد اكتسب الإسلام من هذا الجانب فوائد إنسانية كبيرة.

كان من جملة الأعمال التي يمارسها الأئمّة هو هذا العمل ـ لأنّ أحد أبواب إنفاق الزكاة هو شراء الرقيق وعتقهم ـ ولكن لا بمعنى أن يشترى الرقيق والعبيد من هذا الجانب ويُطلق سراحهم من ذلك الجانب بدون أن يحظوا بأية تربية إسلامية، بل يا حبّذا لو كان العبد قد تلقّى قبل ذلك التربية الإسلامية، وأما إذا لم يكن كذلك فينبغي أن يعيش مدّة من الزمن في عائلة مسلمة حقيقية ليتعلّم منها الأخلاق والآداب الإسلامية عملياً، ومن ثم يُعتق. كان الأئمة الأطهار يفعلون هذا كثيراً، وكان العبيد يتعرّفون خلال مدّة بقائهم في دُورهم على حقيقة الإسلام، ويصبحون مسلمين حقيقيين.

كان ثمّة عبيد كثيرون في دار الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان يدّون في دفتر خاص جميع ما يرتكبونه من أخطاء خلال السنة، إلى أن يحل اليوم الأخير «أو الليلة الأخيرة» من شهر رمضان حيث كان يجمع من في داره من العبيد ويقف هو في وسطهم ويستخرج دفتره وينادي كلّ واحد منهم باسمه ويقول: يا فلان هل تذكر أنّك ارتكبت في كذا يوم كذا ذنب؟ فيقول: نعم. ثمَّ كان يقول: اللّهمّ أنّ هؤلاء كانوا ملك يدي وقد أساءوا لي، وأنّي عبدك قد تجاوزت عن كلّ ذلك. اللهمّ وأنّي عبدك المقصّر أمامك فتجاوز عن ذنبي. وكان يعتقهم جميعاً لوجه الله. وهكذا يتّضح لناأنّ الأصل الأول في الإسلام هو التسامح.

أجل، الإسلام لا يتهاون في القضايا الاجتماعية لأنّ مثل هذا الصفح والتسامح لا يتعلّق بشخص أو فرد فقط وإنّما يتعلّق بعموم المجتمع. فلو أنّ أحد سرق مثلاً تقطع يده، فهنا لا يمكن لصاحب المال أن يتغاضى أو يقول

عفوت عنه لأنّه حتّى وإن عفا فإنّ المجتمع لا يعفو عنه، وهذا ليس حقّه فحسب، بل هو حقّ المجتمع.

ذكر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يسير ذات يوم بمفرده ـ كما هو شأنه على الدوام حيث كان في أيّام خلافته يسير بمفرده ويلج حتّى في الأماكن الخالية ويستطلع الأوضاع بنفسه ـ في أحد الدروب بين البساتين في الكوفة، وسمع صوت استغاثة ينادي: الغوث! الغوث! وكان من الواضح أنّ هناك شجار. فاسرع نحو مصدر الصوت، وما أن وصل حتّى وجد أنّ العراك قد انتهى بين شخصين. فأراد الإمام أخذ الضارب، فسارع إليه المضروب وقال: لقد عفوتُ عنه. فقال له الإمام: إن عفوت فقد عفوت عن حقّك، إلاّ أنّ هنالك حقّ للسلطان، أي حقّ للحكومة وهي التي يجب أن تعاقب عليه. وهذا ممّا لا يمكنك التنازل عنه لأنّه ليس من حقّك.

كان الغرض من الاتيان بهذا المثال هو أنّ الحقّ العام لا يمكن العفو أو التنازل عنه. والإسلام لا يتسامح في شأن الحقوق العامّة، ولكن يمكن التسامح في الحقوق الخاصّة. فإذا كان هناك من يقدّم العون لشخص ثم تبيّن له في ما بعد أنّه شخص مذنب، وأراد أن يقطع عنه العون فذلك شأن يتعلّق به. ولكن عليه أن يعفو جهد المستطاع. ولهذا السبب يأمر القرآن بالعفو والتسامح ويحثّ على اتباع سبيل الإحسان والمحبّة جهد الإمكان.

لا اعتقد أنّ القرآن أكّد على شيء مثل تأكيده على حرمة التهمة ـ وخاصة اتّهام النساء ـ إذ قال في هذا المورد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. هذا منطق القرآن، ولكن ليس هنا مجال الحديث عنه بشكل تفصيلي. القرآن يقول صراحة أنّ عالم الآخرة عالم حيّ وكلّ شيء فيه حي. وكلّ عضو فيه يشهد على ما ارتكب؛ اليد تشهد على ما ارتكبت، والرجل تشهد على ما اقترفت، وكلّ من العين والأذن تشهد بما اقترفت. والجلد ـ وهو

(١) سورة النور: ٢٣ ـ ٢٤.

كناية عن الأعضاء التناسلية ـ يشهد على ما اقترف اللسان هناك يُختم عليه ويُقال له: اسكت ودع الجوارح والأعضاء تتحدّث بنفسها، واللسان لا يتكلّم هناك إلاّ بما اقترف هو بذاته.

يقول القرآن: يوم تشهد على هؤلاء الأشخاص ألسنتهم «لأنّ الذنب كان باللسان» وأيديهم وأرجلهم بما اقترفت: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾.

إذا كانت هناك امرأة ـ والعياذ بالله ـ فاسدة، فإنّ فسادها يؤدّي إلى الانتقاص من شرف زوجها، إلاّ أنّ فساد الرجل لا يقدح بشرف زوجته. ولهذا سر نفسي خاص. ذكرت في سلسلة المقالات التي نشرتها قبل بضع سنوات في إحدى المجلاّت النسائية عن حقوق المرأة ـ ردّاً على ما كانت تنشره تلك المجلّة ـ السر الكامن وراء هذه الحالة. وأنّ الكثير من أحكام الإسلام تقوم على أساسها. فإذا فسدت المرأة لا يمكن للزوج حينذاك ادّعاء الشرف لنفسه. ولكن مهما كان الزوج فاسداً، لا يعتبر الناس زوجته فاسدة ـ إن كانت شريفة ذاتاً ـ بل يقولون أنّ زوجها فاسد وهي لا ذنب لها. هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فإنّ المرأة هي شرف الرجل في جوانب العفّة والشرف، إلاّ أنّ جوانبها الأُخرى الفردية والذاتية لا علاقة لها بالزوج. أي إذا كانت المرأة فاسدة، فذلك يُعتبر تدنيساً لشرف الرجل ولكنّها إذا كان فيها نقص آخر فلا يُحتسب ذلك على الرجل. فلو كانت المرأة مثلاً كافرة أو منافقة فلا صلة للرجل بذلك. ولهذا السبب يضرب القرآن مثلاً بامرأتي نوح ولوط. فهذان كان كلاهما نبيّين حين كانت زوجتاهما كافرتين ومرتبطتين عقائدياً بخصومهما. هنا يقول القرآن: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾. والمراد هنا طيب الشرف. الرجل الخبيث الفاسد يفقد الغيرة ويقبل الزوجة الفاسدة ولا يغيظه ما هي عليه من الفساد. إلاّ أنّ الرجل الطيّب والشريف لا يمكن أن يقبل أبداً بامرأة غير شريفة. وهذا يحصل طبعاً وفقاً لنوع من الاختيار. فالطيبون يطلبون الطيّبات، والخبيثون يطلبون الخبيثات. وهذا لا يعتبر حكماً شرعياً، بل بيان لقانون طبيعي.

نلاحظ أنّ الشبّان الشرفاء يطلبون شابّات شريفات والفتيات الشريفات

يرتضين لأنفسهنّ أزواج شرفاء. أمّا الشاب الفاسد فلا يأبه كثيراً للزواج من فتاة كانت قد «جرّبت» ـ كما يصطلحون هم على ذلك ـ عشرات الشبّان. والروح الخبيثة للشخص الفاسد تحبّذ المرأة الخبيثة، والروح الخبيثة للمرأة الفاسدة تهوى الرجل الخبيث. إلاّ أنّ الروح الطيّبة للرجل الشريف تميل إلى المرأة الصالحة، الروح الطيبة للمرأة الشريفة ترتضي الرجل الشريف.

كيف تتحدّثون عن شرف الرسول ﷺ بهذه الكيفية؟ من المستحيل أن تكون في أُسرة أيّ من الأنبياء أمثال هذه المفاسد. أجل قد يقع الكفر بين أفراد عوائل الأنبياء أو أن يكون ابنه كافراً، ولكن من المستحيل أن يكون فاسقاً. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

سبق وأن أشرت إلى أنّ القرآن يولي أهمية فائقة لقضية العفّة والنزاهة في العلاقات الجنسية بين الأشخاص، وذلك يبتني على حكمة وأسباب أسلفت القول فيها.

أما الأساليب التي شرّعها الإسلام لهذه الغاية فهي شيئان:

الأول: أنّه أقرّ سلسلة من التدابير لتهدئة الغريزة الجنسية.

والثاني: إنّه شرع لهذا العمل عقوبات معيّنة.

الآيات الأُولى التي فسّرناها غرضها هو بيان عقوبة الفحشاء: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، ولكن العقوبة وحدها ـ كما نعلم ـ غير كافية للقضاء على الجريمة والمعصية. ومهما كانت العقوبة قاسية، فهي ليست كفيلة بردع الناس عن ارتكاب الجرائم، سواء كانت تلك الجرائم تتعلّق بقضايا العفّة أم بالسرقة أو القتل أو ما شابه ذلك، أم من نوع عدم الحيطة والحذر كتلك التي تقع أثناء السياقة. ومن الخطأ التمسّك بجانب العقوبة فقط من أجل

---

(١) سورة النور: ٢٧ ـ ٢٩.

الحيلولة دون وقوع الجريمة. وإنّما ينبغي البحث عن أسبابها وعللها، وإزالة تلك العلل والأسباب. أمّا العقوبة فيُصار إليها في حالة الأشخاص غير العاديين، أي حيثما تنعدم بشكل طبيعي علل وأسباب وقوع الجريمة وتحصل فقط من باب التمرّد والطغيان.

اضرب لذلك مثلاً في قضية السرعة في السياقة. فهناك تأكيدات دائمة على السوّاق بأن لا تتجاوز سرعة السيارة داخل المدينة ٤٠ كلم في الساعة مثلاً.

وقد يخالف الشخص ويُعاقب، ولكن إذا لم تدرس الأسباب والدوافع الأساسية فهو لا يبالي مهما كانت العقوبة صارمة، وخاصة في قضيّة السياقة التي تحمل عقوبتها معها لأنّ الشخص الذي يسوق سيارته بسرعة جنونية داخل المدينة أو في الطرق الخارجية معرّض للخطر أكثر من غيره، هو وسيارته. ولكن في الوقت ذاته لا الخطر على حياته وعلى ماله يردعه، ولا العقوبة؛ وذلك لوجود أسباب أُخرى تدفعه إلى السير بسرعة.

العقوبة تحاول أن تكون كلجام لكبح جماحه، إلاّ أن تلك الأسباب تضغط عليه من جهة أُخرى وترغمه على السير بسرعة. كأن يكون سائق سيارة أُجرة مثلاً وحالته المعيشية تفرض عليه الإسراع في نقل المسافرين للحصول على أجور أكثر وإداء ما تفرضه عليه متطلّبات الحياة. ومعنى هذا أن هناك دوافع أخرى ترغمه على الإسراع في السياقة حيث لا تجدي معها العقوبة نفعاً. فلا بدّ إذن من بحث ودراسة الأسباب الأساسية لهذه الظاهرة، والسعي لحلّها؛ كأن يكون العمل سبع ساعات في اليوم وبشكل هادىء كاف للحصول على الأُجور الكافية لتمشية متطلّبات حياته ونفقات أُسرته. وفي مثل هذه الحالة لا يُقدِم الشخص على السياقة بسرعة جنونية يخاطر فيها بنفسه ورأسماله. وأمثال هذه العلل والأسباب موجودة في ظاهرة السرقة، والشراب، والزنا، والقتل، وجميع أنواع الجرائم الأُخرى.

إذن لا بدّ من القضاء على تلك الأسباب. فنحن من جهة ندعو إلى ترك الشراب وننشر على الدوام صوراً على صفحات الحوادث في الصحف عن نتائجه المأساوية. ولو أجرينا إحصاءً لتبيّن لنا أن لحالة الشراب والسُكر دور في نصف حوادث القتل

والجريمة واصطدام السيارات والزنا. في حين تتوفّر من جهة أُخرى موجبات التشجيع على الشراب، والأشعار التي تقرأ على الناس تدعو إلى السكر والشراب، ومحلات بيع الخمور منتشرة أكثر من سائر المحلات الأخرى.

قضية العفاف والزنا تدخل في هذا الإطار أيضاً. فالإسلام قد شرّع عقوبة صارمة لجريمة الزنا ولكن تلاحظون أنّه لم يعوّل كثيراً على العقوبة وحدها. ولهذا جعل طريق إثبات هذه الجريمة صعباً، إضافة إلى أنّه لم يطلب من الأشخاص التجسّس لاكتشاف وقوع الزنا، بل أنّه يقبّح هذه الممارسة. ومع أنّه سنَّ عقوبة صارمة للزنا إلاّ أنّه لا يستهدف القضاء على هذه الظاهرة عن طريق العقوبة وحدها. ولم يأمر بالتجسّس في هذا الحقل: ﴿...وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1].

إذن فما هي الوسيلة التي يجابه بها الإسلام وقوع الجرائم؟ هناك طرق متعدّدة؛ كالإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضافة إلى أسلوب التربية التي يجب أن ينشأ عليها الناس. ناهيك عن وجوب بناء أُسس الحياة بشكل لا يقود إلى الغواية والضلال وتمهيد الأرضية لوقوع الجريمة.

ذكرنا في محاضرة سابقة أنّ الشريعة استهدفت إشباع الغريزة الجنسية عن طريق الزواج، وهي تعارض العزوبية إلى حد بعيد. «وستمر علينا لاحقاً الآيات: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ التي تشجع على الزواج وهو ما سنعرض له في حينه». إذن هناك تشجيع شديد على الزواج ومحاربة مستمرّة ضد العزوبية من أجل عدم توفير وموجبات الزنا[2]. ولكن هل الزواج وحده كاف. فما أن يصبح للرجل زوجة وللمرأة زوج حتّى تشبع

---

(١) سورة الحجرات: ١٢.

(٢) أنّ تشريع الإسلام للزواج المؤقت لم يأت تلبية لإشباع نزوات عدد من الأشخاص المتزوّجين من امرأة واحدة أو اثنين أو ثلاثة أو حتّى أربعة، ليكون الزواج المؤقت طريقاً للتنوع أمامهم وينالوا ثواب ذلك!! ليس لهؤلاء فيه أي ثواب، بل قد ينطوي على ذنب. وإنّما شرع هذا النمط من الزواج للظروف التي يتعسّر فيها الزواج الدائم بما يشترط فيه من أعباء ثقيلة.
ومن جانب آخر بما أن الإسلام ينهي عن العلاقات الجنسية المتحللة، لهذا شرع الزواج المؤقّت الذي هو عبارة عن زواج ضمن تعهدات إلاّ أنّها تعهدات حرّة، أي خاضعة لما يتّفق عليه الطرفان. كأن يتعيّن مصير الطفل الناتج عن مثل هذا الزواج. والإسلام إنّما أباح هذا الزواج في الظروف التي يتعسّر فيها الزواج الدائم، ولكي لا يبقى المرء في حالة من العزوبية؛ لأن العزوبية بذاتها تنطوي على الكثير من المفاسد.

رغباتهما ولا يبقى لديهما أي اندفاع جنسي نحو الآخرين ويصبحا كالحيوانات التي يكتفي كلّ منها بزوجه.

الحيوانات تتصرّف وفقاً لعامل الغريزة ولم تخلق حرّة في رغباتها. الحَمام وبعض أنواع الحيوانات الأُخرى يعيش زوجاً زوجاً. ولا يصدق هذا على حيوانات أُخرى كالغنم والخيل التي تعيش حرّة لا تعرف مسألة الزوجية، وهناك حيوانات لا تقبل بالجنس الآخر ـ وخاصة الوحشية منها ـ إلاّ في حدود إنجاز عملية الحمل. الحيوانات التي تعيش زوجياً؛ هذه خاصية غريزية موجودة فيها. فلا الذكر يمدّ عينه إلى الإناث الأُخرى، ولا الأُنثى تمدّ عينها إلى الذكور الأخرى.

إلاّ أنّ الإنسان في كل شهوة من شهواته يجب أن يؤدّي جميع أعماله بشكل ينسجم مع ما عليه من تكليف لا بأسلوب الغريزة والإكراه استناداً إلى ما يتمتع به من حرّية واختيار. ولهذا بات شرط الزواج ضرورياً للإنسان إلاّ أنّه غير كاف لوحده. فقد يقع بصر الرجل على امرأة أخرى فتثور رغبته، وخاصة إذا كانت المرأة قد جعلت نفسها في حالة مثيرة، وهكذا الحال بالنسبة للمرأة إزاء رجل آخر. وهذا هو السبب الذي جعل الإسلام يضع قيوداً للعلاقة بين الرجل والمرأة بحيث لا تكون مثيرة للشهوة. وهذا ما يتّضح بصورة أكثر جلاءً في الآيات التي سنقرؤها في مابعد.

تتعلّق الآيات التي تليت في بداية البحث بـ «الأذن»؛ وعدم جواز دخول الشخص إلى دار غيره بدون إذن مسبق. هذه الآيات لا تختص بقضية المرأة ولكن تدور ضمن محورها. وهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَآ﴾ أي لا تدخلوا على حين غرّة بيوتاً أُخرى غير بيوتكم بما في ذلك بيت الأُمّ والأُخت ـ والأخ بطريق أولى ـ قبل الاستئذان والسلام والاستئناس بمعنى وجود السكينة والأمن عند أهل الدار إزاءكم.

وهذه النقطة في غاية الوضوح وهي أنّ الحياة الداخلية والعائلية لكلّ إنسان خاصة به تماماً ولا يحقّ لأحد اختراقها لأنّ ذلك يسبب الفزع

والاضطراب عند صاحب الدار. القرآن يؤكّد على ضرورة إزالة هذا الفزع مسبقاً عن طريق الإذن والاستئناس.

لم يكن من المتعارف في القديم أنّ البيوت تُغلق أبوابها. «وكذلك الحال الآن في بعض القرى». أمّا في الوقت الحاضر فالبيوت في المدن مغلقة أبوابها ولا بدَّ لمن يريد الدخول من قرع الباب أو ضرب الجرس. وكان من عادة العرب في الجاهلية الدخول إلى بيوت الآخرين بلا إذن؛ بل كانوا يعتبرون الاستئذان حطّاً من شأن المستأذن. وهذا حكم جاء به الإسلام وأمر بعدم دخول بيوت الآخرين بغير إذن حتّى وأن كانت الباب مفتوحة.

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَآ﴾ ولا تدخلوا بيتاً بدون السلام من الداخل على صاحب البيت. وقد أقرَّ رسول الله ﷺ هذه السُنّة، أي إذا أراد أحد دخول دار يجب أن يعلمهم أولاً لكي يرتّبوا أنفسهم ويستعدوا، ولا يدخل ما لم يقال له «تفضل». ومن الأفضل طبعاً أن يستأذن المرء بدلاً من «التنحنح» بذكر الله؛ كأن يقول: «الله أكبر» أو «سبحان الله». والمتعارف حالياً أنّ الناس يقولون عند الاستئذان «يا الله» وهي سنّة حسنة.

كان رسول الله ﷺ لا يدخل بيتاً حتّى يستأذن، وحتّى دار بنته فاطمة الزهراء سلام الله عليها كان يقف خلف الباب وينادي «السلام عليكم يا أهل البيت» فإذا أُذِن له يدخل، وإذا لم يسمع الإذن يكرر ثانية: «السلام عليكم يا أهل البيت». وإذا أُذن له يدخل، وإذا لم يصل الأذن إلى سمعه، كان يُسلّم ثالثة ـ مخافة أن لم يكونوا قد سمعوا ـ وإذا لم يأته الأذن في المرّة الثالثة يعود ويقول أما أنهم ليسوا في البيت أو أنهم في وضع لا يسمح لهم باستقبال أحد، ولم يكن يضجره ذلك.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بمعنى أنّ مصلحتكم في هذا العمل. ويجب أولاً أن تطبّقوه، ثمّ تعلمون فائدته لاحقاً.

هناك قصص تعرفونها في هذا الحقل، فهناك مثلاً قصّة «سمرة بن جندب» الذي كان شخصاً سيء الأخلاق، ووقف في ما بعد في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وفي أيّام معاوية مواقف مشينة. هذا الشخص كانت له في زمن

رسول الله ﷺ نخلة في دار أحد أصحاب رسول الله ﷺ. وبما أنّ نخلته كانت في دار ذلك الرجل، فقد كان له حقّ الدخول إلى هناك ورعايتها، ولكن كان ينبغي عليه الاستئذان متى أراد الدخول، إلاّ أنّه لم يكن يستأذن، بل يدخل إلى دار ذلك الرجل بغتة «ومن الطبيعي أنّ كل إنسان يكون في داره في حالة لا يحب أن يراه الآخرون عليها» ويثير غضبه. فنبّهه صاحب الدار عدّة مرّات على ضرورة الاستئذان؛ إلاّ أنّه لم يأبه لذلك. فجاء الرجل إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأمر، فاستدعى الرسول سمرة بن جندب وأمره بالاستئذان إلاّ أنّه أبى، فقال له رسول الله ﷺ: أنا اشتري هذه النخلة منك وأعطيك خير منها في موضع آخر، فرفض.

فقال له: أعطيك نخلتين بدلاً منها، فلم يوافق، وحتّى أنّه عرض عليه عشرة بدلاً منها. فأبى. فقال له: اضمن لك بدلاً منها نخلة في الجنّة. فقال: لا أُريد نخلة في الجنّة ولا استأذن في الدخول على نخلتي. وأثبت بهذا الأسلوب أنّه رجل متجبّر «وكما سبقت الإشارة فإنّ الإسلام يأتي أولاً من باب اللين، وإذا لم يتحقّق النتيجة المرجوّة يلجأ إلى أسلوب القوّة». فأمر رسول الله ﷺ صاحب الدار أن يقلع الشجرة ويلقيها أمامه، وقال: «إنّه رجل مُضار وإنّه لا ضرر ولا ضرار على مؤمن».

ثم يقول القرآن: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فإذا لم يكن في الدار أحد فما هو الواجب؟ هل يقول القائل: ما دامت الدار لا أحد فيها يأذن لنا، وليس فيها امرأة حتّى يقال: دخل عليها فجأة، إذن فنحن مسموح لنا بالدخول؟ كلاّ، لأنّ عدم دخول دار الغير لا ينحصر سببه في وجود امرأة في الدار، بل لا يجوز اقتحام الحياة الخاصّة للناس بلا إذن منهم. فحتى لو لم يكن أحد في الدار لا يجوز دخولها إلاّ أن يؤذن لكم، أي لديكم إذن مسبق بدخولها كأن يكون صاحب الدار قد أعطاك المفتاح أو قال لك ادخل إلى هذه الدار.

أما إذا استأذنّا وبدل أن يقول لنا صاحب الدار: تفضّلوا، قال: ارجعوا رجاءً فأنا لا استطيع استقبالكم حالياً. ماذا يكون الموقف في مثل هذه الحالة؟

يقول القرآن صراحة: يجب أن ترجعوا ولا يسؤوكم ذلك. هذا حكم اسمى حتّى من حياتنا المعاصرة لكننا لا ندرك كنهه.

يؤكّد القرآن هنا على عدم الضجر أو الاستياء إذا أعلن صاحب الدار اعتذاره عن استقباله في الوقت الحاضر، إذ قد يكون لديه عمل أهم. فإذا واجهه صاحب الدار بهذه الصراحة يجب عليه أن يكون على درجة من رحابة الصدر بحيث يتقبّل ذلك. ولكن يلاحظ اليوم العكس؛ فلا صاحب الدار قادر على التصريح بحالته للقادم، ولا القادم لديه من رحابة الصدر بحيث يتقبّل ذلك ولا يستاء منه. ولهذا السبب تحصل في مجتمعنا حاليّاً في أمثال هذه المواقف واحدة من الحالات الثلاثة التالية:

الأُولى: أن يضطر صاحب الدار إلى أن يقول لإطفاله كذباً بأن يخبروا القادم أنّه غير موجود. أي أنّه يرتكب ذنباً من الكبائر. ويتصور البعض أنّه قادر في هذا الموقف على التورية. في حين أنّ التورية لا تجوز إلاّ في المواقف التي تستوجب الكذب أي حيثما يترقّب على عدم قولها مفسدة، كأن يأتي رجل شاهراً السلاح ويريد قتل شخص بغير حقّ؛ فيسأل: هل فلان موجود؟ فيقال له: لا، غير موجود هنا.

ويقال في أمثال هذه المواقف: من أجل أن لا تعتاد على الكذب يجب أن تضمر في قلبك شيئاً آخر، فتقول غير موجود، وتضمر في قلبك أنّه غير موجود «هنا». لا أن يكذب المرء كما يحلو له تحت ذريعة التورية! يقول للأطفال: قولوا غير موجود واقصدوا أنني غير موجود في الغرفة الأمامية مثلاً. فأنت ما دمت قادراً على الصدق، لماذا تلجأ إلى أُسلوب التورية؟ بإمكانك القول: أنّني موجود ولكنّي غير قادر على استقبالك.

يُقال: أنّ أحدهم جاء إلى داره ذات يوم ومعه ضيف، ولما دخل إلى الدار تشاجرت معه زوجته قائلة: لماذا جلبت معك ضيفاً وليس لدينا شيئاً في الدار نقدّمه له، أنني لا أوافق بتاتاً على دخوله الدار. فبقي الرجل حائراً ماذا يصنع مع ضيفه. فأرسل إليه أحد الأطفال ليخبره أن أباه غير موجود في الدار.

فصاح الضيف؛ لقد جئنا أنا وايّاه سوية. فرفع الرجل صوته من داخل الدار: قد يكون في الدار بابين وقد خرج هو من الباب الآخر!.

في أغلب الأحيان تقع حالات شبيهة بهذه فحينما يأتي أحدهم ويفتح الباب ويقول: لا أدري إن كان صاحب الدار موجوداً أم لا؛ لأذهب وأرى. هذا كذب مفضوح لأنّ الذي جاء من داخل الدار يعلم هل صاحبها موجود أم لا، ولكنه يريد أن يذهب ويرى هل يأمره بالصدق أم بالكذب.

ومع أنّ الجميع يعلمون حقيقة الأمر؛ أي الضيف يعلم، وصاحب الدار يعلم أيضاً، إلاّ أنّ هذه القضية يتكرّر وقوعها على الدوام!.

إذن الحالة الأُولى هي التي يقع فيها الكذب.

أما الحالة الثانية: فهي النفاق؛ كأن يقول صاحب الدار للضيف: تفضّل، لقد شرّفت وجلبت معك السرور والبهجة! إلاّ أنّه في قلبه يلعنه ويقول: ما هذا البلاء الذي نزل عليَّ في هذه الساعة، لدينا آلاف المشاغل، يا لهم من أُناس غير مؤدبين؟! وبعد أن يذهب الضيف يقف أمام زوجته وأطفاله ويسبّ ويشتم. كيف ينشأ الأطفال في مثل هذه الحالة حينما يشاهدون أباهم يحترم الضيف ويستقبله نفاقاً، ولا يتجرّأ على مصارحته بحقيقة موقفه؟.

الحالة الثالثة: يعتذر صاحب الدار عن استقبال القادم، أو يخرج إليه من يعتذر عن استقباله. وفي مثل هذه الحالة يكون موقف صاحب الدار سليماً إلاّ أنّ الضيف يستاء من ذلك الموقف ويظلّ يتحدّث به أمام الناس حيثما حل ورحل، ويقول لقد ذهبت إلى داره ولم يستقبلني. لا يقول أنني لم اذهب بإذن مسبق، أو أنّه كان معذوراً حقّاً. ينبغي على مثل هذا القادم أن يحمل صاحب الدار على محمل خير وأنّه كان معذوراً حقّاً، وأنّه قد واجهه بصراحة ولم يكذب عليه.

ولكن هناك حالة رابعة يرتضيها الإسلام وهي أن يعتذر صاحب الدار من القادم ـ فيما إذا كان معذوراً عن استقباله ـ ويجب أن لا يستاء القادم عن مشاهدته لهذا الموقف. القرآن يأمر بهذه الحالة الرابعة وهي قوله:

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ولكن هل ينطبق هذا الحكم على كلّ موضع يقيم فيه الناس، كالمحل، والدكان والفندق، ومحل العمل وما شابه ذلك، أم يختصّ بالدار السكنية؟.

يقول القرآن: أنّه يختص بالدار السكنية الخاصّة ومحل العمل الخاصّ، ولا ينطبق على سائر الأماكن العامّة. فلا داعي للاستئذان مثلاً لدخول الدكان أو الفندق أو السوق.

كان هناك شخص ساذج ولكنّه شديد التديّن ذهب يوماً إلى الفندق لرؤية آقاربه هناك، وبقي واقفاً عند باب الفندق وأرسل شخصاً ليستأذن له بالدخول، من غير أن يلتفت إلى أنّ هذا مكانٌ عامٌ يدخله الناس ويخرجون منه بشكل طبيعي وبكثرة ولا حاجة للإذن. وهذا هو قول القرآن:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ﴾ كأن تكون محلاّت تجارية وليست مسكناً خاصّاً. ولكن يجب أن يكون لديكم عمل هناك، وإذا لم يكن لديكم عمل فلا داعي للمضايقة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

نأتي بعد ذلك إلى ذكر آيات الستر[1]: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2]. في هذه الآية مسائل كثيرة جديرة بالبحث، وقد أطنب المفسّرون في بيان المراد من الآية: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾.

يرى بعض المفسّرين أنّ هاتين الجملتين يراد بهما ستر العورة. لأنّ من جملة الواجبات التي فرضها الإسلام على كلّ من الرجل والمرأة هو ستر العورة عن غير الزوج إذ لا يجوز النظر إلى عورة الغير مهما كانت صلة القربى وحتّى

---

(١) هذه الآيات تسمّى بآيات الستر، أما الآيات الواردة في سورة الأحزاب عن زوجات الرسول، والتي تُسمى في الفقه والحديث بـ «آيات الحجاب» فهي خاصّة بزوجات الرسول والأحكام الخاصة الواردة بشأنهن.
هذه الآيات الواردة في سورة النور لا تسمى في الفقه أو الحديث باسم آيات الحجاب. وتتضمّن أحكاماً بالستر للمرأة أمام الرجل، وكذلك أحكاماً عن ستر العورة لكلّ من الرجل والمرأة.

(٢) سورة النور: ٣٠.

الآباء والأُمهمات يحرّم عليهم النظر إلى عورات أبنائهم وكذلك الأخوات والأُخوة، ولا يستثنى من هذه القاعدة إلاّ الأزواج في ما بينهم. وهذا من المسلّمات في الشريعة الإسلامية المقدّسة.

يشير القرآن هنا إلى أنّ ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ فما معنى هذا وما الحكمة منه؟.

الحكمة من ذلك أنّ الإسلام لا يريد للناس أن تنشغل أذهانهم وتتوفّر أمامهم أسباب إثارة شهوتهم أكثر ممّا تستوجبه الطبيعة في إشباع الغريزة الجنسية.

كلّ ما لا يراه الإنسان لا يفكر فيه. وبما أنّ عورات الناس مستورة على الدوام عن بعضهم الآخر ـ في التقاليد الإسلامية طبعاً لا في التقاليد الأوروبية ـ لهذا لا يفكر أحدهم في عورة الآخر. بل أنَّ هذا الأمر مغفول عنه ولا يخطر على ذهن أحد.

فكر الإنسان وعقله وقلبه أنزه وأسمى من التفكير في أمثال هذه المسائل، بل وليست هناك من ضرورة تدعوه إلى ذلك. ولأجل أن لا تنشغل أفكار الناس وأذهانهم في هذه الأُمور، ولكي تبقى بعيداً عن التفكير في أمثال هذه المواضيع، أمر الإسلام بستر العورة. وكانت النتيجة التي جناها من هذا الحكم أنّه حافظ على الدوام على أذهان اتباعه منزّهة وطاهرة وترتفع عن هذه القضايا الدنيئة. بل ولا حتّى تفكر في هذا الجانب أساساً.

من جملة التقاليد المستهجنة المتفشيّة في أوروبا وفي شمالها على وجه الخصوص، وهي آخذة بالانتشار في أماكن أُخرى من العالم، وتلقى التشجيع من أشخاص من إضراب «برتراند راسل»، هي قضية إبراز العورة ومكافحة ستر العورة. يؤكد راسل في كتابه الموسوم «في التربية»: إنّ قضية ستر العورة يجب أن تزول تماماً.

في حين يحرص القرآن على التمسك بهذا الأدب خاصّة وأنّه قال في الجملة التالية: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

إذن يرى البعض أن ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ معناها ستر عورتهم عن الأنظار. وأنّ معنى ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي يغضّوها عن النظر إلى عورات الآخرين.

ولكننا نعتقد أنّ لهذه الآية معنىً أشمل. ﴿...وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أعمّ من معنى ستر العورة، وكذلك: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ لها معنىً أشمل من هذا المعنى. أما ما جاء في الروايات في أن «كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلاّ هذه الآية فإنها من النظر»[١].

يُستبعد أن يكون المراد منه هنا أنه يشمل الجملتين، بل ونحن نجزم تقريباً أنّ: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ لا تختصّ بمسألة النظر للعورة، بل لعلّها تشمل بشكل أكبر قضية النظر لغير العورة. «الغضّ» معناه النقصان في النظر والصوت، وغضّ البصر يراد به تقليل البصر وعدم تركيزه على الشيء المنظور إليه[٢].

وجاء في الآية اللاحقة: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٣]. على النساء أيضاً أن لا ينظرن إلى عورات بعضهن ـ إن كان المراد هنا هو العورة ـ وأن يحفظن أنفسهن من الزنا أو على قول البعض ـ من أنظار الآخرين. وكل ما ذكرنا في ما سبق عن حفظ الفرج وغض البصر في الآية السابقة ينطبق على هذه الآية أيضاً.

كما وردت أحكام أخرى عن ستر النساء، وهي: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[٤]. وهذا فيه كلام مفصل سنأتي عليه في محاضرة قادمة. وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) الكافي ٢: ٣٦، ح١.

(٢) شرحت معنى «الغضّ» و«الغمض» والفرق بينهما في كتاب لي في هذا الحقل عنوانه «الحجاب» ولا أكرّر ذكر الموضوع هنا.

(٣) سورة النور: ٣١.

(٤) سورة النور: ٣١.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

تتحدّث هذه الآية والآية التي سبقتها عن واجب الرجل والمرأة إزاء بعضهما الآخر إضافة إلى مسألة ستر العورة. الآية الأُولى موجهة إلى الرجل وفيها نهي عن النظر إلى ما لا يحل له، ووجوب ستر العورة أو بمعنى أرفع اجتناب الزنا. إذن فعلى الرجل أن يعفّ بصره عن النظر الحرام ويحفظ ذاته عن الفحشاء. والآية المتعلّقة بالرجال أقصر من الآية المتعلّقة بالنساء. والشيء الإضافي الوارد فيها ما هو إلاّ لأجل التأكيد على أنّ هذا الأمر يضمن خيركم وسعادتكم وإنّ الله أعلم منكم وعليم بأُموركم.

تحتوي الآية الثانية على أحكام للنساء وفيها نفس الحكمين الواردين في الآية الأولى مع اختلاف الضمائر من مذكّرة إلى مؤنثة؛ أي على المؤمنات غضّ أبصارهن وحفظ فروجهن.

أشير هنا إلى مسألتين بشأن النساء، وهما:

أولاً: قد تتوهم بعض النساء أنّ الرجال فقط لا يحقّ لهم النظر إلى

النساء. «هل لا يستطيعون النظر إليهن مطلقاً، أم النظر بريبة وتلذذ؟ هذا ما سنأتي على ذكره في ما بعد».

ويتصوّرن أنّ المنع يشمل الرجال، حيث لا يجوز لهم النظر، أو لا يجوز لهم النظر بريبة وتلذّذ، وأنّ المرأة غير ممنوعة من النظر إلى الرجل. في حين أنّه لا يوجد أي فرق في ذلك.

فإن كان النظر محرّماً، فهو محرم على الاثنين، وإذا كان جائزاً، فهو جائز لكليهما.

لكن البعض يتصوّر أنّ الرجل فقط لا يجوز له النظر بتلذّذ، أمّا المرأة فيجوز لها أن تنظر إليه وتقلّبه ببصرها كيف تشاء.

كلاّ، القضية ليست على هذه الشاكلة. القرآن لا يرى أي فرق في النظر بين الرجل والمرأة. طبعاً بعض النساء يدركن هذا الحكم، ولكن لعلَّ الكثير منهن لا يفهمن هذا.

ثانياً: وهذه قضية تعرفها الأكثرية، وربّما لا يعرفها البعض القليل وهي التصوّر الموجود بأنّ المرأة يجوز لها النظر إلى كلّ المرأة حتى عورتها، والرجل فقط لا يجوز له النظر إلى عورة رجل آخر. وهذا التصوّر باطل؛ فعورة المرأة محرّمة على المرأة، وحتّى المرأة لا يجوز النظر إلى عورة بنتها، ولا البنت لعورة أُمّها، ولا الأُخت لعورة أُختها.

القرآن يأمر الرجل في هذا المجال ويأمر المرأة بمثله، ويأمر المرأة بمثل ما يأمر به الرجل. إلاّ أنّه جعل للمرأة واجباً آخر لم يجعل للرجل مثله وذلك هو تكليف المرأة بستر نفسها وهذا ما لم يكلّف به الرجل. أي أنّ هذا التكليف للمرأة دون الرجل. وقد عبّر القرآن عن ذلك بالقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، طبعاً ليس المقصود من ذلك وسائل الزينة حتّى وإن كانت ملقاة جانباً ـ كالأساور مثلاً ـ وإنّما المقصود وسائل الزينة حينما تكون على بدن المرأة؛ لأنّه يساوي رؤية المرأة ذاتها. وعلى النساء أن لا يبدين زينتهن من غير فرق في ذلك بين الزينة التي يمكن فصلها عن البدن كالأساور والخاتم، أو الأشياء التي تلصق بالبدن كمواد التجميل مثلاً.

المرأة لا يجوز لها إظهار زينتها إلاّ في حالتين: الأُولى تتعلّق بالزينة ذاتها؛ أو كما عبّر عنها القرآن بالزينة الظاهرة. وسأشير في ما بعد إلى المراد من الزينة الظاهرة.

والاستثناء الآخر يخصّ الأفراد من غير الزوج أي أنّ المرأة يباح لها إظهار زينتها حتى غير الظاهرية أمامهم وهم الآباء والأبناء، وابن الأخ، وابن الأخت، وأبناء الزوج. إضافة إلى أشخاص آخرين مستثنين من هذه القاعدة سأشير إليهم لاحقاً.

وقبل الدخول في تفسير هذه الآية أُشير إلى نقطتين لإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع، وهما:

الأول: لماذا كُلّفت المرأة بستر نفسها ولم يكلّف الرجل؟ أي لماذا ذكر الستر باعتباره واجباً للمرأة وليس للرجل؟ وسر هذا الأمر واضح لا لبس فيه؛ وهو أن مشاعر المرأة والرجل تجاه بعضهما ليست متشابهة، ولهما من حيث الخلقة وضع غير متشابه. فالمرأة هي التي تتعرّض للهجوم من عين الرجل ويده وجوارحه الأُخرى، ولا يتعرّض الرجل لمثل هذا الهجوم من المرأة. وجنس الذكور والإناث في عالم الطبيعة كلّه على هذه الشاكلة، ولا يختصّ هذا بالرجل والمرأة. جنس الذكر خلق في عالم الطبيعة كمُستَلم بينما جُعلت الأنثى كمخلوق يتعرّض للهجوم من الذكر. وإذا نظرتم إلى جميع الحيوانات تجدون الذكر هو الذي يجري على الدوام وراء الأنثى. هكذا الحال بالنسبة للحمام والدجاج والخيل والحمير والعصافير والأُسود والأغنام وغيرها. والأُنثى مع أنّها تطلب الذكر إلاّ أنّها لا تجري وراءه. ولهذا السبب نجد في بني الإنسان أنّ الرجل هو الذي يذهب ويخطب المرأة، والفتى يذهب لخطبة الفتاة، وهذا أمر طبيعي وفطري.

ظهر في الآونة الأخيرة أشخاص جهلة ـ أو أريد لهم أن يكونوا جهلة ـ انبروا للحديث عن المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة ـ وهم غير مدركين للفارق بين التشابه والتساوي ويتصوّرون أنّ الفوارق بين الرجل والمرأة فوارق في الجنس فقط وفي الأعضاء التناسلية، ولا توجد بينهما اختلافات أُخرى،

ويقولون: ما هذه العادة القبيحة؟ ولماذا يذهب الفتيان دوماً لخطبة الفتيات؟ لا بدّ أن يتغيّر هذا التقليد من الآن فصاعداً لتذهب الفتيات لخطبة الفتيان! ومثل هذا العمل يعتبر.

أولاً: محاربة لقانون الخلقة. ولو تمّ استبدال قانون الخلقة السائد في جميع الحيوانات ـ من حيث ثنائية الجنس ـ لأمكن هنا تغيير هذه القاعدة.

ثانياً: أنّ هذا العمل قد أدّى بحد ذاته إلى رفع قيمة الأنثى. أي أنّ الذكر خلق بشكل جعل منه طالباً، ولا بدّ له من نيل رضا الأنثى، وانطلاقاً من هذه القاعدة فهو يضع نفسه في خدمتها على الدوام. في الكثير من الحيوانات ومنها الإنسان تقع نفقة الأنثى على عاتق الذكر. «تكون هذه الحالة لدى الحيوانات على الأقل خلال فترة حمل الأنثى أو أثناء حضانتها للبيض». وقد خلق الذكر بشكل ما أن تعلن الأنثى عن استعدادها للقبول به حتّى يضع نفسه تحت تصرفها. وهذه تعتبر أُسساً لحكمة كبرى في عالم الخلقة.

تدخل قضية «المهر» ضمن هذا الإطار أيضاً. أي أنّ المرأة تظهر نفسها بشكل تقول فيه للرجل: أنّك أنت الذي تحتاج إليَّ، وأنا لست بحاجة إليك، والرجل هو الذي ينبغي أن يظهر استعداده لتقديم شيء للمرأة لأجل أن تقول له: «نعم» والقرآن يصوّر الصداق بأنّه نحلة؛ أي هدية على سبيل التعارف. والذين يتصوّرون أنّ المهر ثمن للمرأة مخطئون في تصوّرهم هذا. القرآن يؤكّد أنّ المهر أو الصداق نحلة، أي هدية. مثلما تقدّمون الهدية لشخص لكسب ودّه لينجز لكم عملاً ما، فأنتم الذين تقدّمون له الهدية، وليس هو الذي يقدّمها لكم.

التعبير الذي يستخدمه القرآن هو «الصداق»؛ أي بمعنى الشيء المقدّم كعلامة للصدق ودليل على الإخلاص، وليس بمعنى النزوة أو لأجل الشهوة، بل لأجل الزواج، ومنطلقة الحقيقة وليس المخادعة.

وضعية المرأة تختلف في أصل الخلقة عن وضعية الرجل. فالمرأة تتزيّن لتجتذب إليها الرجل، إلاّ أنّ الرجل لا يمكنه أبداً اجتذاب المرأة عن طريق الزينة.

المرأة والزينة والمرأة والجواهر، موجودان مقرونان مع بعضهما على الدوام، المرأة مخلوق ناعم ورقيق، وكلّ المخلوقات الأُخرى تكون فيها الأنثى هي مظهر الجمال والرّقة والزينة، وحينما يراد أن لا تقع فتنة يجب أن يقال لذي الجمال أن لا يظهر نفسه، ولا يُقال ذلك لذي الخشونة والقوّة، أي يُقال لمن لديه القدرة على الاجتذاب أن لا يقود إلى التمهيد لأسباب الضلال والغواية.

في عالم اليوم هناك اتّجاه نحو حالة أُخرى. ويمكنني القول صراحة أنّ هذه الحالة من غير الممكن أن يكتب لها الدوام، وسيجد الساعون إليها أنفسهم في ختام المطاف أنّهم يناطحون صخرة وسيضطرون إلى العودة إلى قانون الطبيعة. وذلك هو ما يلاحظ اليوم من جهود تبذلها النساء للظهور بمظهر الرجولة، وما يفعله الرجال والشبّان للظهور بمظهر أنثوي، ما هي في الواقع إلاّ نزوات صبيانية يمارسها بنو الإنسان اليوم، ولكنّها سريعاً ما ستزول، وهي من الظواهر الخاصّة بعصرنا هذا ومصيرها إلى الزوال سريعاً وخاصّة عند الفتيان الذين يحاولون التشبّه بالنساء في الزي والحركات والزينة، بحيث أنّ المرء حينما يواجه أحدهم لا يدري أفتىً هو أم فتاة، أو كما يقول البعض: «لا بدّ من إجراء دراسات عميقة وموسّعة ليفهم المرء هل هذا فتىً أم فتاة؟!». وهذه الظاهرة تتعارض مع قوانين الخلقة وأُصول الفطرة وإضراب هذه النزوات الصبيانية الحمقاء كثيرة عند بني البشر لكنّها لا تبقى طويلاً.

إذن فالرجل والمرأة عند الاختلاط مع بعضهما لا يملكان ما يُسمّى بالحرّية المطلقة، أي لا يحقّ لهما الاتّصال مع بعضهما كيفما اتّفق، والسبب الذي جعل المرأة مكلّفة بستر نفسها لا الرجل، هو ما أشرت إليه آنفاً. هذه مسألة.

أمّا المسألة الأُخرى فهي ما السبب الأساسي لهذا التشريع؟ وما هي ضرورته؟ ولماذا هناك قضية اسمها الأجنبي وغير الأجنبي؟ ولماذا يجب على المرأة ستر نفسها عن الأجنبي؟ وما السر الكامن وراء هذا التشريع وما فائدته؟.

الميزة الأُولى لهذا التشريع، نفسية؛ أي إيجاد السكينة الروحية. ففي كل مجتمع تقوم فيه علاقات المرأة بالرجل ـ على أساس العفاف ـ في حدود التعاليم الإسلامية التي أشرت إليها ولا تتزيّن المرأة ولا تتظاهر بزينتها خارج إطار الزواج، ولا تجعل من نفسها أداة لإثارة شهوات الرجال، والرجال أيضاً لا يركضون وراء اللذة خارج حدود العلاقة الزوجية عن طريق العين واليد وما إلى ذلك، تبقى الأرواح والقلوب هادئة مطمئنة. وكلّ مجتمع تسوده عكس هذه الحالة يعيش في قلق واضطراب نفسي.

يزعم بعض الأوروبيين أنّ ابتعاد الرجل والمرأة عن بعضهما يسبب لهما اضطراباً نفسياً وعقداً روحية. إلاّ أنّ تجربة القرن الماضي أثبتت بكلّ وضوح بطلان هذا الزعم؛ إذ كلّما اتّسعت الحرية في الشؤون الجنسية تتفاقم معها وطأة الإثارة عند الأشخاص؛ لأنّ الغريزة الجنسية عند الإنسان (كما هو الحال في عدّة غرائز أُخرى مثل غريزة حبّ الجاه، وغريزة طلب العلم، وغريزة العبادة) غير محدودة بسعة جسمية معيّنة، بل لها استيعاب نفسي واسع.

الغرائز المحدودة بسعة جسمية معيّنة مثل غريزة الطعام، فالإنسان قادر على تناول كمية محدودة من الطعام لا يستطيع تجاوزها. ولكن ماذا عن الملكية؟ هل هي مثل الطعام؟ فإذا مَلَك الإنسان مائة ألف دينار هل يقنع؟ لا، فهو بعدما يملك المائة ألف دينار تتوق روحه للمائتين، وإذا صار لديه مائتي ألف دينار يتعطّش للخمسمائة، وإذا صار مليونيراً يطمح لأن يصبح ملياردياً. وأنّ أكثر الناس ثروة في العالم يكون أشدّهم تعطّشاً للحصول على المزيد منها.

وماذا عن حبّ الجاه؟ حبّ الجاه على نفس الشاكلة أيضاً. قد يطمح الإنسان أن يكون رئيساً لنقابة، ولكن هل إذا أحرز هذا المنصب تمتلىء نفسه ويكتفي؟ لا بل تنبعث في نفسه طموحات جديدة، فيميل مثلاً للحصول على منصب مدير بلدية. ولو أعطي العالم بأسره وقيل له: أنت ملك على كلّ هذا العالم، تراوده حينذاك هواجس أُخرى ويتولّد لديه طموح بملكية كرة أرضية أُخرى والسيطرة عليها. وهكذا الحال في الغريزة الجنسية عند الإنسان.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

سمّيت هذه السورة بسورة النور لوجود هذه الآية فيها والتي تعدّ من الآيات المشكل معناها من حيث التفسير وخاصّة بسبب وجود الجملة الأخيرة التي تستلزم الكثير من التدبّر والتأمّل. وكلّ واحد يفهم منها على قدر سعته واستيعابه، لأنّ الآية اللاحقة ورد في آخرها بعد ذكر المثل، قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾. وجاء أيضاً في آيات أُخرى: إن الله يضرب الأمثال للناس ولكن لا يدرك مغزاها إلاّ العالمون.

يستدلّ من هذا أنّ الأمثال الواردة في القرآن لها عمق لا يستوعبه أيّ كان. ونحن من بعد الاستعانة بما قاله المفسّرون المتقدّمون، وبما جاء في الروايات، نحاول في ما يلي عرض مجموعة من الآراء بشأن هذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

بما أنّ السماوات والأرض عندما يأتي ذكرهما في القرآن لا يذكران باعتبارهما جزءاً من المخلوقات في العالم، بل باعتبارهما كلّ المخلوقات العلوية والسفلية الموجودة في عالمي الغيب والشهادة. وحينئذٍ يكون معنى الآية أنّ الله نور الكون كلّه. إذن اطلقت في بداية هذه الآية كلمة «النور» على الله تعالى.

ما يفهمه الإنسان من كلمة «النور» ابتداءً هو هذا النور المحسوس الذي لم يفهم علماء الفيزياء حقيقة كنهه حتّى الآن. القدر المسلّم به هو أن في هذا العالم شيء اسمه النور. وإن كان إدراك حقيقته صعب من الوجهة العلمية.

بعض الأجسام نورية وتشعّ النور كالشمس مثلاً، والنجوم، والمصابيح التي يضيئها الناس. ولولا هذه الأنوار لكان العالم يتخبّط في ظلمة تغمره بأسره. إلاّ أن وجود هذا الضوء هو الذي ينير العالم. وهذا هو ما يسمّى بالنور الحسّي والمادّي.

من البديهي أنّ المراد من ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وليس هذا النور المعروف لدينا.

فهذا النور واحد من مخلوقات الله. جاء في مطلع سورة الأنعام المباركة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] الله سبحانه وتعالى خالق هذا النور، وليس هو ذلك النور. وهذا الموضوع لا جدال فيه من وجهة نظر القرآن، لأنّ هذا النور مخلوق؛ خلقه الله، بل وحتّى أنّ القرآن يتحدّث على الدوام عن مصدر هذا النور؛ أي الشمس والكواكب التي تعتبر بحدّ ذاتها من مخلوقات الباري جلّ ذكره. إذا كان هناك من يحمل نظير هذا التصوّر عن الله تعالى، ويظنّ ـ كما تظنّ العجائز ـ أنّه تعالى عبارة عن زجاجة من النور فوق العرش؛ وهذا النور كنور الكهرباء ونور الشمس وما شابه ذلك، فإنّ مثل هذا الشخص يوجد خلل في إيمانه. فهذا النور نراه بأعيننا، في حين يصف القرآن الله بأنّه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2]. ومن يتصوّر أنّ الله نور من جنس هذا النور فقد افترضه جسماً يُرى[3].

إلاّ أنّ كلمة النور لا ينحصر مصداقها في النور الحسّي؛ بل وضعت هذه

---

(١) سورة الأنعام: ١.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣) ينسب إلى العقيدة المانوية أنها كانت تقول بأنَّ الله نور ـ من نوع هذا النور المعروف ـ ويسمّونه بالنور الأعظم. وعلى كلّ حال فإنّ كل من يعتقد بهذا الاعتقاد فهو على باطل.

الكلمة للدلالة على ما هو ضوء ومضيء، أي ما هو واضح وموضّح لغيره. ونحن نسمّي هذا النور الحسّي نوراً لأنّه واضح لأعيننا وموضّح لغيره. ونحن نستطيع أن نسمّي كلّ ما هو واضح وموضّح لغيره نوراً، حتّى وأن لم يكن جسماً أو شيئاً محسوساً. على سبيل المثال نحن نسمّي العلم نوراً، وجاء في الحديث: «**العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء**»[١].

وهذا الكلام صحيح ودقيق لأن العلم واضح بذاته وموضّح للعالم أمام بصر الإنسان. ولكن من البديهي أن العلم نور ليس من جنس نور الكهرباء والشمس وغيرهما ولا هو شيء جسماني ومحسوس، ومع هذا فنحن نسمّيه نوراً، وكذلك نسمّي العقل نوراً. العقل بذاته نور. والقرآن الكريم يُسمي الإيمان نوراً، وذلك قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٢].

وهذا النور هو نور الإيمان وبصيرة القلب. ومن الطبيعي أنّ نور الإيمان ليس من نمط نور المصباح أو نور الشمس أو الكهرباء وما شابه ذلك. الإيمان بذاته حقيقة غير جسمية صفته الإضاءة والإيضاح لأنّه يُحدث في باطن الإنسان نوعاً من الإيضاح والكشف ويدلّه على الهدف والغاية وإلى طريق السعادة.

حينما نفهم كلمة النور بهذا المعنى، أي بمعنى الحقيقة الواضحة، والموضّحة، ثم لم نحدّد هل وضوحها للعين أم للقلب أم للعقل، ولم نعيّن كيفية وضوحها، يصحّ عندها أن نعتبر الله تعالى نوراً بهذا المعنى. أي بمعنى الحقيقة الواضحة الدالّة على ذاتها.

وانطلاقاً من هذه الرؤية ما مِن شيء يعتبر نوراً في مقابل الله؛ بمعنى أن كلّ الأنوار في إزائه ظلمات. لأنّ الشيء الوحيد الواضح بذاته هو الله فقط. وأما بقية الأشياء فإنّ كانت واضحة وموضّحة فهي في الحقيقة ظلمات في ذاتها، وأنّه هو تعالى الذي أعطاها صفة الوضوح والإيضاح. جاء في القرآن

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص٢٢٥.
(٢) سورة الأنعام: ١٢٢.

الكريم في وصف الباري عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ﴾ والظاهر بمعنى الواضح. أن الله هو خالق الأشياء، أي بمعنى هو مبديها ومظهرها.

وجاءت كلمة النور في الأدعية والروايات كاسم من أسماء الله. ووردت في مطلع دعاء كميل جملتان تؤيّدان هذا المعنى وتخاطبان الله تعالى بالقول: «يا نور يا قدوس» ولعلّ السبب في مجيء كلمة «يا قدّوس» بعد كلمة «يا نور» لكي لا يتوهّم أحد أنّ الله نور، مثلما توهّم المانويّون، بمعنى أنّ الله ليس نوراً جسمياً محسوساً، فهو نور ولكنه لا من جنس هذه الأنوار.

وردت قبل هذه العبارة جملة تستلزم مزيداً من التأمّل، وهي: «وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء». هذا التعبير على قدرٍ عالٍ من الرّقة والسموّ بحيث أنّي عاجز عن العثور على نظير له. الأدباء والشعراء يعبّرون عن المحبوب بالشاهد، أي الذي يحضر في ذلك المحفل وينيره بوجوده، وإذا غاب عنه أظْلَمَ.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «وبنور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء» إذا لم يكن نور وجهك فكلّ شيء مظلم، أي ليس ثمّة شيء، بل كلّ شيء في ظلمة العدم، ولا يعني هذا أنّ الأشياء موجودة ولكن في ظلام، مثلما نكون نحن في ظلام الليل.

وردت رواية في كتاب «التوحيد» للشيخ الصدوق مفادها أنّ رجلاً من غير المسلمين جاء إلى علي عليه السلام وسأله: أين الله؟ فأمر عليه السلام أن يؤتوه بحطب فجاؤه به فاضرم فيه النار ويبدو أنّ الوقت كان ليلاً، فأضاء المكان فسأله أمير المؤمنين عليه السلام أين موضع الضوء؟ قال الرجل: أنّه موجود في كل مكان. فقال له عليه السلام: النور مخلوق من مخلوقات الله، وهو موجود أينما أضاء. والله سبحانه وتعالى موجود في كلّ مكان فيه نوره، ونوره موجود في كلّ مكان. «وبنور وجهك الذي أضاء له كلّ شيء».

إذن أحد جوانب القضية هي: هل يجوز اطلاق كلمة «النور» على الله تعالى أم لا؟ نعم يمكن ذلك استناداً إلى أنّ الأئمّة اطلقوا هذه الكلمة من جهة، ولأنّ ظاهر هذه الآية القرآنية يدلّ على هذا المعنى من جهة أُخرى، كما

أنّ هذا لا يتعارض مع الدليل العقلي من جهة ثالثة. ولكن يجب أن نعلم أنّنا إذا قلنا بأنَّ الله نور فليس مرادنا بأنّه من نوع هذا النور الحسّي ـ والعياذ بالله ـ لأنّ هذا النور الحسّي من خلق الله تعالى.

المعنى الوحيد المقصود من قولنا بأنَّ الله نور هو أنّ الله واضح في عالم الخلقة وموضح لغيره. وكلّ نيّر غيره إنّما يستمدّ نوره منه. الله ظاهر بذاته ولم يُظهره شيءٌ آخر، وهو ما تظهر به جميع الأشياء الأُخرى، وتتّضح بنوره الأعيان. بهذا المعنى يمكن اطلاق كلمة «النور» على الله تعالى.

إضافة إلى هذا يتّسم النور بخصائص أُخرى وتلك هي قضية الهداية والتوجيه التي تلازم وجود النور. وهذا الموضوع سنعرض له في ما بعد.

ثمّة مسألة أُخرى وهي إنّنا نسمّي الله «نوراً» ولكننا لا نسمّيه أبداً «بالنور الأعظم» لأنّ هذا يعني وجود أنوار كبيرة وصغيرة وأنّ الله هو أكبرها وأعظمها. بل نقول أنّه نور بمعنى أنّ كلَّ ما سواه ظلمة. وحينما نقيس الأشياء الأُخرى ـ باستثناء الله تعالى ـ مع بعضها، يكون بعضها نوراً، وبعضها ليس نوراً. العلم ـ مثلاً ـ نور، والعقل نور، والإيمان نور، والبصر نور، وبهذا المعنى يكون الله نور النور[1]، لا «النور الأعظم»، أي أنّ كل الأنوار بالنسبة له ظلمة، وأنه هو الذي منحها النور.

أشرنا إلى أنّ القرآن الكريم أطلق على جملة من الأشياء اسم «النور من جملتها أنّه اطلق على ذاته اسم «النور»، أي أنّه نور خلقه الله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[2]. إذن معرفة الله نور.

لو سُئل إنسان بسيط عن معنى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لقال أنّ المراد هو

---

(١) في كتاب «مفاتيح الجنان» دعاء مجرّب في إزالة حرارة البدن، وهو: «يا نور يا نور النور يا مدبّر الأمور...».

(٢) سورة المائدة: ١٥ و١٦.

هذا النور الحسّي. ولكن الإنسان الأكثر فهماً يمكن أن نبيّن له أنّ الله ليس واهباً للنور فقط، وإنّما هو بذاته نور حقّاً، والنور من أسماء الله، ولا ينحصر معناه في النور الحسي. هذا هو معنى الجملة الأُولى من الآية.

أمّا الجملة الثانية فجاءت كمثل لنور الله وليس بذاته. يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد جعل لمخولقاته أنواراً ليهديهم. وورد هنا ذكر مثل لنور الله الذي يهدي به الناس. وقد تضاربت الأقوال في معنى هذا النور، حيث يضرب لنوره مثلاً بواحدة من الآلات القديمة المستخدمة لإنارة الأبنية الكبيرة والمعابد الواسعة، وهي المشكاة.

في ما مضى كان يُعد مكان خاص في الجدار يوضع فيه مصباح. والمثل الذي يضربه القرآن هو أن هذا المصباح موضوع في جسم شفاف كالقنديل أو الزجاجة، ومن الواضح أن المصباح حينما يكون في زجاجة يكون نوره أشدّ وأكثر بسبب الاحتراق التام أو بسبب انعكاسه عبر الزجاج. وهذا المصباح في زجاجة موضوعة في غرفة ويوقد من أفضل أنواع الزيت وهو زيت الزيتون السريع الاشتعال.

كان هذا المصباح أفضل أداة للإنارة صنعها الإنسان حتّى ذلك الوقت. وقد ضرب الله تعالى لنفسه مثلاً بهذا المصباح في مثل هذا الحال ويوقد بمثل هذا الزيت. ثم يقول: إنّنا نضرب الأمثال ونترك التدبّر فيها للناس. وقد أشرنا مراراً إلى أنّ دأب القرآن هي دعوة الناس للتفكير، وهذه الدعوة لا تقتصر على القول المباشر، بل يعمد أحياناً إلى عرض الموضوع بشكل يثير الفكر ويدفعه إلى التدبّر لكي يتوصّل إلى مدى عمق ذلك الموضوع.

وبهذا المثل يكون القرآن قد حقق الهدف الذي يتطلّع إليه، أي أنّه لم يدفع المفسّرين وحدهم إلى التفكّر في هذا الموضوع، بل حتى غير المفسّرين انهمكوا في التفكّر في هذا المعنى لمعرفة المراد من هذا المصباح، وهذه المشكاة، وهذا الوقود، وهذه الشجرة المباركة، وكيف يضيء ذاتياً بلا أن تمسّه النار؟ فقد فكّر ابن سينا مع أنّه لم يكن مفسّراً، في هذه الآية واستنتج منها شيئاً وشرح ما توصّل إليه. وكذلك كتب الغزالي ـ الذي لا يحسب في

عداد المفسّرين ـ كتاباً في معنى هذه الآية الشريفة. ويعتقد كلّ منهما أنّ المثل الذي ضُرب في هذه الآية قد ضرب للإنسان. مع الاختلاف طبعاً في نمط الصياغة الذي عرضه كلّ منهما.

أحد حقول الفلسفة هو معرفة الإنسان وعلم النفس الإنسانية. والفيلسوف يستند في المسائل النفسية على القوّة العاقلة أكثر من أي شيء آخر، ويرى أنّ جوهر الإنسان هو عقله، وكمال الإنسان بكمال قوّته العقلية، وسعادته أيضاً رهينة بكمالها سواء العقل العملي أم العقل النظري، والنظري منه بالدرجة الأُولى. ولهذا السبب حينما قيل: أنّ هذا المثل بشأن الإنسان، اعتبروا ذلك حول الجوهر الإساسي للإنسان الذي هو قوته العقلية، وطبّقوه على المراحل والمراتب التي صنّفوا القوّة العقلية على أساسها. فقالوا أنّ المقصود من المشكاة هو العقل الهيولاني. أي العقل في مرحلة القوّة والاستعداد المحض. والمراد من الزجاجة وكلّ ما يؤدي إلى مضاعفة النور هي مرحلة «العقل بالملكة»، والمراد من المصباح هو مرحلة «العقل بالفعل»، والمقصود من الشجرة، شجرة الفكر، إلى آخر ذلك.

وبغض النظر عن مدى صحّة هذا الرأي الذي يبدو لي أنّه رأي مستبعد، فإنّ ابن سينا لا يقول أنّه مفسّر للقرآن، إلاّ أنّه طبّق تعابير القرآن على ما قاله في باب مراتب العقل، وبلا أن يقول أنّه قصد تفسير الآية. بينما عرض الغزالي رأيه بشكل يوحي وكأنّه قصد تفسيرها.

وقال آخرون أنّ الله عزّ وجلّ لم يقصد من مثل المصباح والمشكاة والزجاجة إلاّ أمراً واحداً فقط وهو أنّ ذلك النور قوي جداً، كمصباح شديد التوهّج في الليل في مثل هذا المسجد.

وأراد أنّ المقصود من الآية هو أنّ النور الإلهي، والهداية الإلهية واضحة وبيّنة كالمصباح المتوهّج في الليلة الظلماء.

وفُسّرت هذه الآية في رواياتنا بشكل آخر وهذا يدلّ بحد ذاته على أنّ هذه الآية يمكن تفسيرها على وجوه عدّة. إشارة بعض الروايات إلى أنّ مثل هذه الآية كمثل الإنسان ولكن لا تنطبق على عقل الإنسان ولا على إيمانه،

وإنّما شُبّهت بجسمه، كصدره وقلبه ونور الإيمان، وكيفية استقرار نور الإيمان في قلبه، وروحه في جسده. إذن فالروايات اعتبرت هذه الآية تشبيهاً للإنسان، ولكن للجانب الإيماني فيه.

وجاء في روايات أُخرى أنّ هذه الآية تمثيل للإنسان، ولكن ليس لكلّ إنسان مؤمن، وإنّما لخاتم الأنبياء فقط، استناداً إلى ما ورد في آخر الآية وهو قوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ التي يستدلّ منه أنّ الحديث يدور هنا عن النور الذي يهدي به الله الناس. وفسّرت على أن المراد من المشكاة صدر رسول الله وجسمه. والمصباح هو نور الإيمان ونور الوحي في قلبه. ثمّ يكون المراد من ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ هو الإشارة إلى انتقال النور من المصباح إلى القنديل، ويرمز إلى اقتباس علي عليه السلام لنور الولاية والإيمان من الرسول صلى الله عليه وآله، فالمقصود بالزجاجة هو علي عليه السلام. أمّا الشجرة المباركة التي كلّ هذا النور منها فهو إبراهيم عليه السلام. وبما أنّ الشجرة وصفت في هذه الآية بأنّها لا شرقية ولا غربية، فإنّ الرواية هنا تشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي لم يكن منهجه على دين النصرانية ولا على دين اليهودية: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

إذن هذا تفسير آخر لهذه الآية ولهذا المثل الوارد فيها. وأنا لا ادّعي قطعاً صحّة الرأي الذي أعرضه بشأنها. واعتقد أنّه تعالى قد ضرب لنا مثلاً لنتأمّل ونتدبّر فيه، وقد جعله مثلاً شاملاً يمكن أن يفهم منه هداية الله لجميع الكون، أي أنّ هذا الكون عبارة عن دار، ولكنّها ليست مظلمة بالمرّة، بل أنّ فيها مصباحاً متوهّجاً وذلك هو نور الله. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم في آيات أُخرى أيضاً، وفيه نقطة حساسة وهي أنّ جميع ذرّات الكون تسبّح باسم الله؛ أي أنّها كلّها على علم بوجوده.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

جرى البحث في تفسير هذه السورة على معنيين؛ أحدهما اطلاق النور على الله تعالى شأنه وذلك هو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمعنى الثاني هو المثل الذي جاء ذكره في الآية الكريمة ويشبّه فيه داراً فيها مصباح مضيء، وهذا المثل ليس لذات الله، بل لنوره.

أشرت سابقاً إلى أنّ هذه الآية الكريمة من الآيات التي استحوذت على اهتمام المفسّرين وغير المفسّرين. وأعرض عليكم في ما يلي موضوعاً يساعد إلى حدّ ما في إيضاح مفاد هذه الآية، وذلك أنّه جاءت في رواياتنا في باب «معرفة الله» قضية تبدو في الوهلة الأولى وكأنّها في غاية الصعوبة وهي أنّ كلّ شيء يُعرف بالله، وأمّا هو فيعرف بذاته، بل وجاء في رواياتنا تعبير عجيب هو: «كلّ معروفٍ بغيره مصنوع» في حين أنّنا نتصوّر ـ ونظن عدم وجود طريق آخر سواه ـ أنّ العالم تكون معرفته بواسطة العالم، أي نعرف المخلوق بالمخلوق، وأيضاً نعرف الله بواسطة المخلوق.

---

(١) سورة النور: ٣٥.

حتّى أن بعض الكتّاب المسلمين ـ وأول من بدأ به هم المصريون ثم سرى إلى غيرهم ـ قالوا: إنّ معرفة الله تتمّ أساساً عن طريق مخلوقاته، وإنّما يعرف بعد معرفة مخلوقاته. وحددوا مصدر هذا الطريق الوحيد بالقرآن الكريم.

من المؤكّد أن حصر معرفة الله بهذا الطريق دون غيره يُعتبر خطأً تماماً.

وهذا الأسلوب مفيد للناس المبتدئين فقط من أجل تذكيرهم بالله. وهذا ما فعله القرآن الكريم ذاته وجعل خلق الله دليلاً وبرهاناً عليه. ولكن لا يحصل الإنسان من هذا الطريق إلاّ على صورة إجمالية ومبهمة عن الله تعالى.

القضية الأُخرى هي أنّنا نجد في القرآن موضوعاً آخر ـ أشرت إليه في المحاضرة السابقة ـ وهو مبدأ الهداية. أي أنّ القرآن لا يعتبر أيّاً من المخلوقات ضالاً وأعمى، بل يعتبرها جميعاً مبصرة ومهتدية. هذا باستثناء الإنسان الذي يهتدي إلى الطريق بنفسه ـ على اعتباره مكلّفاً ـ أو قد يضلّ نسبياً في تكليفه[1].

تصرّح الآيات القرآنية باهتداء جميع المخلوقات. نقل عن لسان موسى عليه السلام أن فرعون لمّا سأله عن ربّه قال له: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

وفي هذه الآية إشارة إلى برهانين: أولّهما برهان النظام، ومعناه أنّ الله تعالى أعطى كلّ مخلوق ما يستحقه وما ينبغي له. أمّا الثاني فهو الهداية: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ بمعنى أنّه بصرّ كلّ مخلوق بمصيره وهدفه وطريق كماله.

قال الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[3]. ووجدت المفسر الوحيد الذي التفت إلى هذه النقطة هو الفخر

---

(١) استميحكم عذراً بسبب عرض هذه المواضيع المعقّدة. إلاّ أنّها على كل حال آية قرآنية ولا يمكن التهاون في بيان معناها.

(٢) سورة طه: ٥٠.

(٣) سورة الأعلى: ٢ و٣.

الرازي، ويبدو أنه هو الذي قال أن الله جعل آية وبرهاناً للخلق، وآية وبرهاناً آخر للهداية.

وبما أنّ الكون عبارة عن ماكنة، فإنّ له حسابه الخاص. وبعبارة أُخرى هو نظام المخلوقات الذي يُعتبر أصلاً. كما أنّ كلّ واحد من الموجودات لديه شيء غامض شبيه بالغريزة يقوده إلى الأمام وهو ما يمكن اعتباره أصلاً آخر. ولكن كيف يهدي الله كلّ واحد من المخلوقات إلى غاية معيّنة؟ هذه القضية شبيهة بقضية المعرفة؛ بمعنى أنّ كلّ موجود يُهدى أوّلاً نحو الله، ثم نحو غاية أُخرى، أي أنّ الله غاية الغايات. وكلّ غاية تتّخذ غائيّتها منه تعالى.

بما أنّ الله نور السماوات والأرض، فكل شيء يستمد نوره من عنده، وهذا هو معنى أنّ كلّ شيء يُعرف بالله، والله يُعرف بذاته، وكلّ شيء ظاهر بالله والله ظاهر بذاته، وكلّ شيء يُهتدي إليه عن طريق الله، إلاّ الله فإنّه يُهتدي إليه بذاته. وهذا هو السبب الذي يجعل القرآن يعتبر لكافة الموجودات ولكافة الذرّات نوعاً من الحياة والشعور. ويؤكّد بعد آيتين أو ثلاث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وهذه نتيجة طبيعية لما سبقت الإشارة إليه. والنتيجة المنطقية لـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هي: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

ومثلما تختلف الموجودات في درجاتها ومراتبها، تختلف تبعاً لذلك درجات هدايتها؛ للجماد هداية في حدوده، وللنبات هداية في حدوده، وكذلك الحيوان، والإنسان له درجات للهداية في حدوده أفراداً وجماعات[2].

أشرت في المحاضرة السابقة إلى أنَّ الروايات وغيرها من كلمات

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

(٢) لا أُريد التوسّع أكثر في هذا الجانب من الآية. وقد أشرت في بعض مؤلّفاتي إلى أنّ البعض يتصوّر أنّ الله من وجهة نظر القرآن غائب وخفي، وأنّ الإنسان قادر على كشفه من خلال الكون فقط. وبيّنت أنّ هذا الرأي مغلوط، وأنّ القضية على العكس تماماً وأنّ مثل هذه المعرفة ـ إذا توفّرت ـ معرفة ناقصة. والمعرفة الصحيحة هي أن يعرف الإنسان العالم بواسطة الله، لا أن يعرف الله عن طريق العالم. وقد وردت في هذا المجال تأكيدات كثيرة في كلمات الأئمة عليهم السلام، وخاصّة في نهج البلاغة.

المفسّرين والعلماء قد جاءت فيها آراء مختلفة بشأن المراد من هذا المثل. فالبعض اعتبره رمزاً للعالم كلّه، بمعنى أنّ عالم الوجود ليس عالماً مظلماً، بل فيه أقوى المصابيح توهّجاً. إذن عالم الوجود ليس عالماً مظلماً وأعمى. واعتقد آخرون أنّ هذا المثل للإنسان وسبق لنا وأن تحدّثنا عن الإنسان في محاضرات سابقة، وأقدم في ما يلي عرضاً ملخّصاً وشاملاً لكلّ تلك الآراء.

يقولون: أنّ الهداية على نوعين: هداية طبيعية؛ وهي موجودة حتّى في الطبيعة الجامدة. وهداية حسّية: ومعناها أنّ جميع حواسّنا هذه هي مشاعل هداية موجودة لدى الإنسان أو الحيوان. فالهداية الغريزية يراد بها أنّ لكلّ حيوان مجموعة غرائز تقوده نحو غايته. والهداية العقلية: يراد بها أن القوّة العاقلة بحد ذاتها نور منح للإنسان ليستفيد منه في التدبّر والتفكّر. والدين أيضاً يعد نوعاً من الهداية تسمّى بهداية الوحي.

رأى البعض أنّ هذا المثل يقصد به الهداية العامّة للموجودات، وقال آخرون أنّه للإنسان. (في حين قال غيرهم أنّ المراد به كلّ أنواع الهداية التي لدى الإنسان من حس وعقل وغريزة وحتى هداية الوحي، فيما اعتقد آخرون كابن سينا بأنه خاص بالهداية العقلية).

ورأى آخرون أنّ ذلك ينطبق على هداية الوحي مثلما جاء في الروايات، وأنّ المراد من المشكاة هي صدر النبي ﷺ، والمصباح هو نور الوحي الذي نزل عليه، إلى آخر ذلك.

ولكن لا مانع من انطباق هذه الآية ـ المبيّنة لنور الهداية الإلهية التي شملت الكون بأسره ـ على جميع هذه المعاني خاصة المعنيين الواردين في الروايات وكلاهما بشأن الإنسان؛ أحداهما بشأنه كفرد مؤمن، والأخرى بشأنه كمجتمع. ويحمل كلّ منهما معنىً عميقاً، خاصة الآية اللاحقة التي تقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

هناك سؤال يتبادر إلى الأذهان وهو: لماذا استخدم القرآن هذا النمط في التعبير؟ كان بميسوره أن يقول: كمشكاة فيها زجاجة، وفي الزجاجة مصباح.

فسّرت رواياتنا هذه الآية على أساس أنّ المصباح أولاً في مشكاة، ثمّ

ينتقل منها إلى زجاجة. والسر الكامن وراء التعبير عن هذه الصورة بهذه الشاكلة هو أن المقصود من المشكاة النبوّة، والمقصود من الزجاجة الولاية والإمامة، والمقصود من الشجرة المباركة النبي انبثقت منها هذه الزجاجة وهذا المصباح، هو إبراهيم عليه السلام، وهي كلّها جاءت نتيجة لدعاء إبراهيم عليه السلام.

وجاء في الآية التي بعدها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ما هو المراد من ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ هنا؟ لعل جميع المفسرين قالوا هو المصباح الذي ضربناه مثلاً في مثل هذه البيوت. ومن الطبيعي أن هنالك سؤال يتبادر إلى الأذهان وهو أن ذلك المصباح كان كافياً أينما ذكر، فلماذا جاء كل هذا القيد. بشأن ذلك المصباح في دار تتصف بكل هذه الأوصاف؟ هذا يؤكّد الرأي القائل بأن هذا المثل قد ضرب بالإنسان. جاء في رواية وردت في تفسير الصافي: «هي بيوتات الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى»[2] ولكن ما الفارق بين دور أولياء الله ودور غيرهم؟ بل لا بدّ أنّ دور الآخرين أفضل من دور الأولياء من حيث البناء والمظهر وما شابه ذلك. ويستدلّ مما جاء في هذه الآية وكذلك ممّا جاء في الروايات أنّ المراد ليس البيوت الطينية والظاهرية، وإنّما المقصود ذاتهم وأبدانهم؛ أي أنّ هؤلاء الناس أبدانهم مساجد ومعابد لأرواحهم. وتؤيّد رواياتنا أنّ هذا هو المقصود من البيوت.

كان «قتادة» وهو من كبار فقهاء ومفسّري أهل السنّة في عصره يعيش في الكوفة. ذهب في أحد أسفاره إلى المدينة وقصد الإمام الباقر عليه السلام وعرض عليه ما كان لديه من أسئلة وحصل منه على الجواب، وتعجب من سعة علم الإمام وشعر إزاءه بالصغر. وقال للإمام صراحة بأنّه واجه الكثير من العلماء لكنه لم يشعر بالإضطراب أمام أي منهم. فقال له الإمام: أتعلم بين يدي من أنت جالس؟ بين يدي ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فقال له قتادة: آمنت

---

(١) سورة النور: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) تفسير الصافي: ج٣، ص٤٣٦.

يابن رسول الله أن المراد من البيوت الواردة في القرآن ليست البيوت الطينية وإنّما «البيوت البشرية».

تستفاد من هنا قضية في باب التوحيد وهي: سواء اعتبرنا تلك البيوت طينية أم بشرية ـ وهي طبعاً بشرية ـ فإنّ القرآن يؤكد أن الله أذن بتكريم هذه البيوت واحترام شأنها. وحتّى إن كان المقصود هو البيوت الطينية فنحن نعلم أنّ الدين الإسلامي قد فرض على الجميع احترام المساجد وتعظيمها وقال بحرمة تنجيسه وعدم احترامه، وإذا أصاب المسجد نجس يقع على الآخرين واجب كفائي في تطهيره بأسرع ما يمكن، وإذا قال قائل: بأنَّ هذا يتعارض مع مبدأ التوحيد؛ لأنّ المسجد ليس إلاّ طيناً وتراباً وحجراً وكذلك ذات الكعبة ليست إلاّ أحجاراً نضدت فوق بعضها لا غير، فهل يجب على الإنسان تكريم واحترام الحجر والتراب؟ فنقول له: لا ليس للحجر أي احترام أو كرامة، وإنما التكريم لله ولعبادته. فالمعبد يحظى بالاحترام لكونه معبداً، وقد أذن لنا المعبود باحترامه. ولا يدخل هذا في باب الشرك بل هو عين التوحيد. وهذا لا يختص بالمعبد وحده، لأنّ الله تعالى لو أذن كنا أن نحترم العابد لكونه عابداً، فليس احترامنا له شركاً، بل هو عين التوحيد.

وبناءً على هذا هل يُعتبر احترام وتكريم الرسول والأئمة عليهم السلام، أو حتى من هو أدنى منهم شأناً، شركاً؟ لا، لأنّهم: ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فهو كما أمر بتكريم البيوت الطينية ـ أي المعابد ـ قد أمر أيضاً باحترام البيوت البشرية التي هي معابد للأرواح، وهي أرفع منزلة من تلك البيوت الطينية، بل وأن احترام البيوت الطينية إنّما جاءها من احترام العابدين فيها.

والكعبة نالت احترامها من إبراهيم وإسماعيل والأنبياء الآخرين من بعدهم، ومن كونها ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[1]. وبما أنّها أول بيت وضع لعبادة الله، فالاحترام الذي تحظى به نابع من العبادة. أذن حتى الكعبة تستقي احترامها من العابد ومن العبادة.

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

جاء في الروايات الشيعية وكذلك في روايات السنّة أنّ المراد من هذه البيوت هم الناس الذين أكثروا العبادة حتى غدوا هم بأنفسهم مساجد. حينما يصبح فعل الإنسان وحركته لله، وطعامه وشرابه وتفكيره ونومه لله لا يغدو بدنه إلاّ معبداً. قال علي عليه السلام في دعاء كميل: «**يا ربّ يا ربّ يا ربّ، قوِّ على خدمتك جوارحي، واشدد على العزيمة جوانحي، وهب لي الجد في خشيتك، والدوام في الاتّصال بخدمتك**». وهذا هو عين ما كان يتّصف به، وقد منحه له ربّه. مثل هذا الإنسان كلّ بدنه معبد، بل ومن أكبر المعابد. وحتّى الكعبة لا يمكنها أن تزعم أنها مثل هذا المعبد.

وخلاصة القول هي أن «آية المَثَل» قد فسّرت سواء من قبل المفسّرين أو كما جاء في الروايات بأنّها تعني الإنسان، واعتبر المصباح والمشكاة والزجاجة عن الهداية الإنسانية؛ إلاّ أنّ البعض قال أنّها عن هداية العقل، في حين قال آخرون بأنها تعني هداية الوحي، أو حتّى الهداية الحسّية. ولكن ما تلك الدار التي فيها مصباح الهداية ذاك؟ في دار وجود الإنسان. وهداية الوحي على الخصوص بشأن أولياء الله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

نقل لي أحد الأشخاص موضوعاً في غاية الإثارة قاله في أحد الأيام «السيد مهدي قوام» في أحد مجالس الوعظ والإرشاد حين عرض للآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[1]. وذكر أنّ هذا المعنى من الظلم ينطبق على كلّ من يمنع بدنه أن يكون مسجداً لروحه ومعبداً لذكر الله؛ وأحد أنماط ذلك هو «أن قتل المؤمن يعدل خراب المسجد»، والنمط الآخر له هو أن قتل أولياء الله فيه تخريب لأكبر المساجد.

أما «الغدو والآصال» التي ورد ذكرها في الآية فقد قال المفسرون أنّ المراد منها طوال الوقت، لا بمعنى أن التسبيح يكون في الصباح والمساء، ويغفل عن ذكر الله في سائر الأوقات. من هم المسبّحون الذين تقصدهم هذه الآية؟ هم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والرجال هنا ـ كما قال

(١) سورة البقرة: ١١٤.

المفسرون ـ لا بمعنى الجنس المقابل للنساء، بل معناه إلغاء الخصوصية، إضافة إلى قصد «أصحاب الهمّة». حينما يراد أحياناً ذكر الأشخاص من ذوي الهمّة؛ يقال «رجل» أو «رجال». وهنا لا يختلف المعنى سواء كان المقصود ذكراً أم أنثى. طبعاً ورد اسم البيع والتجارة هنا كرمز للانشغال؛ وإلاّ فأي عمل آخر كالتدريس أو الخطابة أو الطب أو البناء، أو الهندسة وغيرها تدخل بأجمعها في هذا الباب.

ومن هنا يتّضح اختلاف المنطق العرفاني للقرآن مع غيره من أنماط العرفان. القرآن لا يقول يجب أن يكفّوا أيديهم عن العمل والوظائف والحدادة والهندسة والتجارة والتعليم وينشغلوا بذكر الله. بل يؤكّد على عدم الغفلة عن ذكر الله حين ممارسة العمل. والشيء الوحيد الذي يجب عليهم عدم نسيانه هو ذكر الله. مثل هذا الإنسان يصبح بدنه مسجده حقّاً؛ لأنّه يذكر فيه على الدوام اسم الله وتسبيحه وتقديسه. هذا الإنسان يمارس جميع الأعمال الصالحة التي يمارسها الآخرون؛ الآخرون يأتون مثلاً إلى مكاتبهم ويقدمون الخدمة للناس، وهو أيضاً يأتي إلى مكتبه ويقدم للناس خدمة اسوة بالآخرين، ولكن الفارق يكمن في أنّه لا ينسى ذكر الله في ذات الوقت الذي يؤدّي فيه عمله.

قد يقول قائل: وهل من الممكن أن يؤدّي الإنسان عملاً ويذكر الله في وقت واحد؟ أجل، هذا ممكن وخاصّة إذا كان الإنسان كاملاً، وحتّى غير الكامل من الممكن أن يكون هكذا. وأقدّم لكم هنا مثلاً: قد تعتري الإنسان حالة من الفرح والبهجة لا ينساها. تصوروا أنّ شاباً يحب فتاة وهو مغرم بها، ويبذل جهوداً متواصلة لخطبتها وطلب يدها، وبعد مدة طويلة يأتيه جواب بالموافقة، فيغزو الفرح والسرور قلبه ويشعر ببهجة لا تضاهيها بهجة، ومهما يؤدّي من أعمال فهو لا ينسى شيئاً واحداً يبقى عالقاً في ذهنه على الدوام ويدغدغ مشاعره وعواطفه وذلك هو البشرى التي جاءته بالموافقة على الزواج من حبيبته.

وعلى العكس من ذلك إذا أصابت الإنسان ـ لا سمح الله ـ مصيبة، كأن يفقد أحد أعزّائه، فهو حتّى وأن أرغم نفسه على عملٍ معين يبقى الحزن مخيماً على قلبه حتّى حين أدائه لذلك العمل. والمؤمن الحقيقي يذكر الله على كل

الأحوال بمثل هذه الصورة. الشيء الوحيد الذي لا ينساه على الدوام هو ذكر الله. بل وكل عمل يؤديه إنما يؤديه بحكم الله وامتثالاً لأمر الله، وذكر الله هو الذي يدفعه لأدائه.

حينما تتخذ «المعاملة» صيغة دائمة ومستمرة تُسمّى حينذاك «تجارة». ولكن قد يؤدي المرء أحياناً عملاً مرّة واحدة كأن يبيع داره؛ فهذه ليست تجارة وإنما بيع. وقد ضرب القرآن مثلاً بمال الدنيا لأنّه أكثر شيء يؤدّي إلى غفلة الإنسان.

التجارة: عمل مستمر في التعامل والبيع والشراء، أمّا البيع فهو مجرّد عمل عرضي يقع مصادفة. وأمثال هذه الأُمور لا تُلهي عن ذكر الله ولا عن الصلاة أو الزكاة. وإنّما يبقى خوف الله شاخصاً أمام الأبصار من ذلك اليوم الذي تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

أسأل الله التوفيق لكم جميعاً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

استنتجنا من الآيات السابقة أنّ الله تعالى هو أصل جميع أنواع الهداية، وقد ضرب مثلاً لنور هدايته وقال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾. أحد الآثار المترتّبة على اهتداء الإنسان بنور الهداية الإلهية هي أنّ عمله يتّخذ قيمة. فما معنى هذه القيمة؟.

يؤدّي الإنسان في هذا العالم جملة من الأعمال، بل أنّ جميع حياته عمل وجهد ونشاط؛ يستقيظ في أول الصباح ويبقى يمارس نشاطه حتّى الليل، ولو نظر إلى نفسه أو إلى غيره لرأى الحياة برّمتها حافلة بالعمل والحركة والسعي. ولو سأل نفسه: لماذا هذا السعي والعمل؟ من الطبيعي أن المقاصد والأهداف متفاوتة تماماً، إلاّ أنّ الجميع يسعون في نهاية المطاف نحو أمر واحد؛ وذلك هو السعادة.

الإنسان يسعى بشكل فطري لنيل السعادة لا الشقاء. ولو أنّه سعى إلى أعمال تؤدّي إلى شقائه فهو لا يؤدّيها بقصد الوقوع في الشقاء، بل يتصوّر في تلك الحالة أنّ سعادته تكمن في هذا العمل.

إذن من البديهي ومن المسلّم به أن الإنسان يقصد من وراء سعيه وعمله

---

(١) سورة النور: ٣٨.

وجهده بلوغ السعادة ولا يقصد أبداً من وراء ذلك أن يكون نصيبه الشقاء. وقد يحصل أحياناً أن يسعى الإنسان ويبذل جهوداً كثيرة في هذه الدنيا متوهماً أن ذلك يوصله إلى السعادة المنشودة إلاّ أنّه يدرك بعد مدّة أن كل عمله ذاك كان عبثاً أو قد تأتي عليه تلك الجهود بنتائج عكسية، ولو أنه لم يبذل تلك المساعي لكان أفضل له.

أحد آثار الإيمان بالله والاهتداء بنوره هو أن يصبح لعمل الإنسان قيمة واقعية. أي أنّ يصبح في وضع يؤدّي عمله إلى سعادته حقّاً سعادة أبدية. وهنا تعرض قضية توضّحها الآية اللاحقة بشكل أكثر صراحة وهي هل العمل الصالح للإنسان أو العمل السيء، له صلة بإيمانه أم لا؟ وهل كلّ عمل صالح يفعله الإنسان يؤدي إلى سعادته على كل الأحوال حتى وإن لم يهتد بنور الهداية الإلهية، وأن العمل السيء على كل الأحوال سيء على الإنسان حتى وإن كان مهتدياً بنور الهداية الإلهية؟.

هذه القضية كثيراً ما تثار اليوم وخاصة من قبل الشباب، ويقول ما الضرورة لأن يكون الإنسان مؤمناً حتى يقبل عمله عند الله؟ فالعمل الصالح صالح على كلّ الأحوال، وما دام الله غنياً فما الفرق عنده في أن يعرفه الشخص الذي يعمل صالحاً أو سيّئاً، أو لا يعرفه؟ وأنّه يجب أن لا يفرق بين عباده؛ سواء من يعرفه ويعظمه ويصلّي ويصوم، أم من يجهله، بل ويتمرّد عليه ويعصيه، ولكن كلاهما يؤديان عملاً صالحاً؟ وهذا ما يوجب عدم أخذ قضية الإيمان بنظر الاعتبار يوم القيامة، والذي يجب اعتباره هو العمل فقط. فإذا كان هناك شخص منكر لوجود الله وأنبيائه، لكنه ادّى عملاً صالحاً يخدم البشرية، يجب على الله أن يدخله الجنّة، وهكذا إذا عمل الإنسان الذي يؤمن بالله عملاً صالحاً يجب على الله أن يدخله الجنّة. ولو أن الله سبحانه وتعالى فرق بين أمثال هذين يكون شأنه ـ والعياذ بالله ـ شأن رئيس الدائرة الذي يفرّق بين من يعظّمه ويتملق له وبين من لا يبدي له التكريم والتملّق في حين أن الرئيس الجيّد هو الذي لا يفرق بين أفراد دائرته على هذا الأساس، وإنّما ينظر إلى عملهم فقط؛ يثيب من يتقن عمله.

هذه القضية يثيرها الكثير من الأشخاص على شكل سؤال واعتراض. وقد

تناولت هذه القضية في القسم الأخير من كتاب «العدل الإلهي» وتحدثت عنها بالتفصيل. وأقدم لكم الآن مقتطفات من تلك المواضيع بما يتناسب مع هذه الآيات الثلاث.

لأجل الإجابة على هذا الاعتراض، نستطلع أوّلاً رأي القرآن في ذلك. نلاحظ القرآن لا يؤكّد على العمل وحده وإنّما يؤكّد على العمل والإيمان سويّة، ويصرّح دائماً بالقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. القرآن لا يعتبر الإيمان وحده كافياً للسعادة البشرية حتّى يقول مثلاً: «أنتم مؤمنون، فأنتم إذن سعداء مهما يكن عملكم». ولا يعدّ العمل وحده كافياً لهذا الغرض حتّى يقول: «الذين عملوا الصالحات سواء آمنوا أم لم يؤمنوا». بل يؤكّد عليهما معاً.

كان هناك بطبيعة الحال من يقول الفضل كل الفضل للإيمان، وليس للعمل أي شأن. وكما يوجد بيننا من يقول ليس للعمل دور في سعادة الإنسان، والدور للإيمان وحده يوجد كذلك من يدّعي أن الإيمان لا أهمية له، وكل الأهمية للعمل، وحتّى القرآن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[2].

هذا إضافة إلى السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا الصدد وهو قولهم أن هناك الكثير من الأشخاص الذين قدموا خدمات كبرى للبشرية، وهم ليسوا مسلمين؛ بل وبعضهم لا يؤمن بوجود الله فالشخص الذي اكتشف البنسلين قدم للبشرية خدمة كبيرة فكان البنسلين سبباً في معالجة الكثير من الأمراض المستعصية. وكذلك الحال بالنسبة للشخص الذي اكتشف اللقاح المضاد للكزاز، ومن هم على شاكلتهم. هل يمكن القول أن الله لا يقبل عملهم بجريرة عدم الإيمان؟.

نتناول في ما يلي دراسة هذه القضية لنتعرف على حقيقتها. هنالك مبدأ

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

(٢) سورة الكهف: ٣٠.

عرضه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يمكن أن يوضّح لنا أساس هذه القضية وهو ما جاء في سورة بني إسرائيل:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

خلاصة هذه الآيات أنّ الله لا يضيّع أجر الإنسان في ذلك المقصد. فهو تعالى جعل هذا العالم على هيئة مزرعة يحصد الإنسان ما يزرع فيها. فمن يزرع حنطة يجني حنطة، ومن يزرع شوكاً يجني شوكاً. ولا يمكن أن يزرع زرعاً ويتوقّع ثمراً لزرع آخر. وحتّى إذا كانت المزرعة ممتازة فلا يعني هذا أنّها تدرّ ثمراً جيداً بغض النظر عن الزرع المغروس فيها. وكذلك الناس لهم في مساعيهم غايات شتّى. صحيح أنّهم جميعاً ينشدون السعادة، ولكن في أي شيء يطلبونها؟ أحياناً يجهد الإنسان في هذه الدنيا ويكدح لكي ينال ثمرة جهده في هذه الدنيا ولا شأن له بالله وبالآخرة. ولكنه قد يعمل تارة أُخرى لا لأجل نيل نتيجة مادية في هذه الدنيا وإنّما للتقرّب إلى الله والحصول على النتيجة في الحياة الأُخرى.

القاعدة تقضي أنّ الإنسان إذا بذر لذلك العالم فلا بدّ وأن يجني المحصول هناك وإذا زرع لهذا العالم يحصل على النتيجة هنا. القرآن يقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ أي أنّنا نفيض بمددنا على الذين يبتغون الله والحياة والآخرة، وكذلك على الذين يريدون الحصول على النتيجة في هذا العالم. ولكن مع وجود فارق واحد وهو بما أن هذه الدنيا دار تزاحم العلل والأسباب فإنّنا لا نضمن لمن يبتغي الدنيا الحصول على مبتغاه لأن غايته قد تتعارض مع مقاصد وموانع أخرى. فهو يبذر ليجني في الدنيا ولكن قد يفسد بذره ونحن لا نضمن لجميع الأشخاص نيل مقاصدهم، ولا نضمن لشخص واحد نيل ثواب جميع أعماله. كثيراً ما تصاب البذور التي تبذر للدنيا بالآفات والفساد. أما ما يبذر

---

(١) سورة الإسراء: ١٨ ـ ٢٠.

لله وللآخرة فلا يتعرض لمثل هذه الآفات لأنها تسير في تناسق وانسجام مع قانون الطبيعة، بل ويدر محصولاً أكثر مما زرعه الشخص.

فهل هذا المبدأ العام منطقي أم غير منطقي؟ كما جاء هذا الموضوع في آيات أخرى بصورة أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1]. والبذر يختلف هنا حسب نيّة الإنسان؛ أحدهما يزرع بنيّة الدنيا، والآخر يزرع بنيّة الآخرة. كما ويستفاد من الآيات القرآنية موضوع آخر مفاده أن من يسعى للدنيا لا يحصل على شيء من الآخرة، ولكن من يعمل للآخرة ينال ـ تبعاً لذلك ـ الدنيا. وهذا حساب آخر. ويبدو أنّ هذا الطرح في غاية المنطقية، ولو كان غير هذا لكان بعيداً عن المنطق. وهو ممّا لا يمكن لأحد الاعتراض عليه.

أمّا رأي القرآن فيمن يقبل عمله وفيمن لا يقبل عمله فهو: أن من يعمل للدنيا لا بدّ وأن يكون لديه هدف؛ فإن كان يبتغي الشهرة والجاه والمحبوبية، ورفعة بلده، والسمعة لأبناء قومه ودولته، غالباً ما يحصل على ما يهدف إليه. إلاّ أنّ العمل الذي يؤتى به لهذه الغاية لا يرتجى منه تحقيق غاية أخرى. أي أنّه أتى بذلك العمل لا بقصد القربة إلى الله، بل لأجل التقرّب إلى الناس، وهو يتقرب به إلى الناس إلا أنه لا يمكنه القول بالتقرب إلى الله. وهل يمكن للإنسان بلوغ مقصدين مختلفين في سفر واحد يقع أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب؟ إذا سار الإنسان نحو الشمال يصل إلى الشمال، وإذا توجّه إلى الجنوب يصل إلى الجنوب. في أي طريق يسير الإنسان يصل في نهاية المطاف إلى نهاية ذلك الطريق.

وانطلاقاً من هذه الرؤية يكون الإيمان شرطاً لقبول العمل، لا بمعنى أنّ الله تعالى يقول: من يتخضع لي أقبل عمله، ومن لا يفعل ارفض عمله، بل أنّ الذي لا يؤمن بالله ولا يروم التقرّب إليه لا يصل إليه. والذي لا يطلب الآخرة لا يجوز إعطاءها له. في الآخرة يعطى للإنسان ما كان يطلب، ولا معنى لأنّ

---

(١) سورة الشورى: ٢٠.

يعطى ما لم يطلب. أجل لا يشترط في أصل قبول العمل الانتماء إلى الدين الإسلامي وإلى المذهب الشيعي. إذا كان الإنسان يؤمن بالله ويعتقد بالآخرة وجاء بعمل في سبيل الله وللآخرة فعمله بحدّ ذاته مقبول عند الله إلاّ إذا جاء بآفة تقضي عليه، كأن يكون عناداً أو كفراً (وهو ما سنشرحه في ما بعد). الذي اكتشف البنسلين اسدى لأبناء البشر خدمة، ولكن ماذا كانت غايته من وراء تلك الخدمة؟ الله جل شأنه يوصله إلى غايته حسبما تكون ولا يمكن أن يكافئه بما لم يطلب. من المستحيل ـ بل ولا معنى ـ لأن يصل إنسان إلى غاية لم يطلبها.

إذن ما ذكرناه من اهتداء الإنسان بنور الله ـ أو قل الإيمان بالحقّ ـ يضفي على عمل الإنسان قيمة، يعود سببه إلى أنّه يغيّر طبيعة عمل الإنسان في هذه الدنيا. فإذا كان هناك شخصين أحدهما مهتدٍ بنور الله والآخر غير مهتدٍ يبدو ظاهرياً أنهما يؤديان عملاً واحداً، ولكنهما باطنياً يختلفان من السماء إلى الأرض: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

فسرت هذه الآية على وجهين؛ كلاهما صحيح. وكما سبق وأن أشرت فإنّه لا معنى أساساً لحمل آيات القرآن على معنىً واحد. فقد نلاحظ تارة أنّ الآية تحتمل تفسيرين، يكون حينها كلاهما صحيحين وهذا من خصائص ومعجزات القرآن حيث تأتي تعابيره أحياناً بشكل يمكن حملها على عدّة معان.

العدل معناه حسن العلاقات الاجتماعية، والظلم مؤشر على تفسّخها فإذا كان مجتمع إسلامي يعرف الله، ويعتبر نفسه مجتمعاً قرآنياً وينادي بنداء: «أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله، وأشهد أن علياً ولي الله» ولكنه لا يعير أهمية للمبدأ الذي يدعو إليه القرآن: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، بل تقوم علاقاته الاجتماعية على الظلم والكذب والفساد والتهمة، في مثل هذه الحالة لا يدّعي القرآن أنّ هذا المجتمع جدير بالبقاء، وإنّما يؤكّد أنّه يسير على طريق الزوال، مستنداً في زعمه هذا على ذلك المبدأ، القائل بأنّ الفرد أو المجتمع يصل في نهاية المطاف إلى نهاية الطريق الذي سار عليه، ولكنه إذا لم يسلكه

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

عليه أن لا يتوقّع بلوغ تلك الغاية. إذا سلك الشخص أو المجتمع المادي طريق الحياة الدنيوية يصرّح القرآن أنّه يبلغ غايته. ولكن الشخص أو المجتمع المؤمن بالله إذا سلك ذلك السبيل الدنيوي خطأ لا يبلغ غايته ولهذا السبب لا يرتجى الشخص المادي الذي لا يسلك الطريق إلى الله وإلى الجنّة شيئاً من الشؤون الآخروية، مثلما لا نرجو نحن في الدنيا بلوغ نهاية الطريق الذي لم نسكله، وهكذا الحال بالنسبة للآخرة أيضاً.

جاء بعد آية النور التي تركّز في مضمونها ـ وفقاً للروايات ووفقاً لما يستشف من الآية ذاتها ـ على الهداية، وبعد قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جاءت الآية: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. أنّ تعابير القرآن تثير العجب، لأنّ جملة ﴿...لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إما تعود على: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ وإما تعود على: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ فلا فرق في أن نقول: أنّ الله يهديهم لهذا لغرض، أو أن نقول: أنّ المهتدين يعملون على هذه الشاكلة ولا ينسون الله. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾. وهذا هو ما أشرت إليه من قبل؛ أي أنّ الإيمان يضفي على عمل الإنسان مثل هذه القيمة، فيستلم على أثر ذلك خير الجزاء.

ولكن كيف يحصل على خير الجزاء؟.

من الواضح أنّ الآخرة فيها القرب من الله، والحياة الأبدية وغفران الذنوب وجنان الخلد. ولكن ماذا عن الحياة الدنيا؟.

لا يرى القرآن أي تناقض بين الآخرة والدنيا. فهل ثمّة تناقض وتضاد بين الآخرة والدنيا؟ اضرب لكم في هذا المجال مثلاً وانظروا أنتم هل هو تناقض أم لا؟ وهو أنّ من يطلب سرب الجمال يحصل تلقائياً على الوبر والبعرور، إلاّ أنّ من يطلب الوبر والبعرور لا يحصل على سرب الجمال. وكذا من يطلب الآخرة، يحصل على الدنيا، ولكن من يطلب الدنيا لا يحصل على الآخرة.

إذن الإنسان يجني من وراء عمله أكثر فائدة ممكنة وينال السعادة الأبدية الآخروية، والقرب إلى الله والنجاة من العذاب حينما يهتدي بنور الله ويعمل لله، عند ذاك: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي ينالون الدنيا والآخرة. ثم

يضيف: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. وهذا منطق قرآني عام ورد في مواضع متعدّدة بصيغ مختلفة لكن مضمونه واحد وهو أنّ الذين يعملون لله ينالون ما يشاؤون: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[١] ـ هذا إضافة إلى ـ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٢]. وبما أنّ الطريق هنا طريق فطري ينسجم مع الطبيعة البشرية، لذلك يأتيهم فضل آخر لأشياء لم يطلبوها. وورد في تعبير آخر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾[٣]. وهنالك تعبير آخر غريب جاء في القرآن يفيد أنّ من يعمل سوءاً يُجزى بمثل عمله، ومن يعمل خيراً يُكافأ عليه عدّة أضعاف: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٤].

وهناك أيضاً منطق آخر في القرآن لطيف ونبيل وهو: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[٥]. هذا مبدأ في غاية الروعة. هكذا تكون صفة العمل إذا كان لله، أي حتّى إذا كان فيه عيب أو نقص، فإنّ الله تعالى بفضله ولطفه يزيل تلك العيوب ويحولها إلى محاسن.

إذن هناك قضيّتان:

الأُولى: هي أنّ الله يضاعف العمل الصالح عشر مرات، هذا من حيث الكمية، بمعنى أنّ الباري تعالى يزيد في كمية العمل.

والقضية الثانية: هي الكيفية، العبد يؤدّي عملاً نصف جميل ولكن يلاحظ في ما بعد أنّ الله يجعل عمله تام الجمال. وهذا كلّه فرع من المبدأ الأشمل الذي سبقت الإشارة إليه وهو أنّ من يهتدي بنور الله لا يضل ولا يشقى. وهذه المعجزات تحصل نتيجة الاستنارة بنور الإيمان: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

المراد هنا أنّ العمل الذي أدّوه على أحسن ما يمكن يجزون عليه أحسن

---

(١) سورة الإسراء: ١٩.
(٢) سورة ق: ٣٥.
(٣) سورة الشورى: ٢٠.
(٤) سورة الأنعام: ١٦٠.
(٥) سورة الشورى: ٢٣.

الجزاء. والعمل الذي أدّوه وأرادوا أنّ: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ثم يضيف إلى فضله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. والرزق لا يقتصر طبعاً على الطعام والشراب، بل يراد به هنا هذا الفضل وهذه الرحمة الإلهية. ومن الطبيعي أنّ مشيئة الله لا تأتي اعتباطاً وبلا حساب، وإنّما للذين بيّن خصالهم.

هذه الآية تتحدّث عن عمل المؤمنين. ولكن ماذا عن عمل غير المؤمنين، أو المعاندين والجاحدين؟ هؤلاء ذكر لهم القرآن ثلاثة أمثلة، جاء منها هنا مثلان. وكلّ واحد من هذه الأمثلة الثلاثة يتضمّن موضوعاً أساسياً. يقول تارة هؤلاء أعمالهم كتل من تراب جاءت عليه الريح في يوم عاصف تحمل كل ذرة منه إلى مكان. وجاءت بهذا المضمون آيات أخرى ولكنها لم تأت على هيئة المثال؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1].

إذن يقول أحياناً أنّ عمل الكفّار شيء ـ وليس لا شيء ـ ولكن الريح تحمله وتذروه في كلّ مكان. والمثل الآخر الذي يضربه لأعمال الكفّار هو السراب الذي كلّما دنا منه الإنسان وجده لا شيء، وليس إلاّ انعكاس الشمس على الرمل. فالسراب ظاهره ماء ولكنه في حقيقته لا شيء. كما يشبّه القرآن تارة أخرى بإنسان يتخبّط بين أمواج البحر في ليلة ظلماء لا يقدر حتّى على رؤية يده، وكلّ واحد من هذه الأمثلة يسلّط الضوء على جانب من جوانب الموضوع؛ الأوّل مثل لأعمال الكفّار السيّئة: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[2]. والآخر للذين يتوهّمون أنهم يعملون عملاً صالحاً، ثم يظهر لهم في ما بعد أنّه كان سراباً. والمثل الآخر لمن يعمل صالحاً ثمّ يعمل بعده عملاً يمحقه ويبطله من أساسه.

اللهم أنّي أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعزّ الأجلّ الأكرم يا الله....

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) سورة النور: ٤٠.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[1].

تتناول هذه الآيات عاقبة عمل الكافر، وما هو مصير من يتصوّر أنّه عمل صالحاً، وما هو مصيره إذا اقترف عملاً سيّئاً. وأعرض هنا قضيّتين كمقدّمة للموضوع. أحداهما المعنى الذي يقصده القرآن من كلمة الكافر. هل يقصد بهذه الكلمة كلّ من هو غير مسلم؟ أم أنّ الكافر يعني كلّ غير مسلم بالتقصير، ولا يشمل كلّ من هو غير مسلم بالقصور؟.

يستعمل العلماء اصطلاحاً له جذور دينية، ويجعلون كلمة الجاهل كمدار في التقسيم ويقولون أنّ الجاهل على نوعين: أما قاصر أو مقصر. ومن الطبيعي أنّ كلّ مخالف هكذا؛ أي أما أن يكون قاصراً أو مقصّراً. فإذا ارتكب الإنسان جريمة وهو لا يعلم فلا ذنب عليه وهو في هذه الحالة يكون قاصراً بسبب عدم علمه[2]. ولكن قد يكون تارة أُخرى فاهماً للموضوع ولكنه رغم معرفته يرتكب الجريمة بدافع الشهوة والهوى.

---

(١) سورة النور: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) خذ مثلاً بنظر الاعتبار شاباً يعيش في قرية نائية أو بين الجبال حينما تسأله عن مسائل الشكوك أو السهو الذي يقع في الصلاة أو عن أية قضية شرعية أُخرى كالخمس أو الزكاة مثلاً لا تجده يعرف =

في القرآن تعبير عن هذا المعنى ولكن لا بصيغة القاصر والمقصّر، بل جاء هذا التعبير باسم «المستضعف» أي بمعنى الضعيف أو من لا تصل يده، وجاء في تعبير آخر: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾[1] بمعنى أنّ هناك فئة يجب أن لا تحكموا مسبقاً على مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم، بل قولوا: متركون لأمر الله فيهم يعمل ما يشاء، وهذا بحد ذاته تبشير بالرحمة. وقد لا يكون أمثال هؤلاء الأشخاص مسلمين، حيث توجد الآن أماكن في العالم ـ في أفريقيا وأمريكا وأوروبا والشرق وغيرها ـ أُناس لم يسمع الكثير منهم باسم الإسلام. وفي أماكن أُخرى اتّبعت الحكومات سياسات لا تسمح للناس بسماع شيء عن الله وعن الدين. وهؤلاء أيضاً ينطبق عليهم معنى الكفر بشكل أو آخر؛ بمعنى أنّهم غير مسلمين. ولكن لا أحد يقول عنهم أنّهم كفّار جاحدين أو معاندين. الكافر المعاند هو من عُرض عليه الإسلام وفهمه ولكنه لم يعتنقه لمصلحة خاصّة أو بسبب التعصب أو حب الجاه. هذا هو معنى الكفر.

وكلّ غير مسلم حتّى أن عرض عليه، إذا لم يتّخذ موقفاً معادياً منه يمكننا اطلاق صفة الكافر عليه من جهة، ولا يمكننا ذلك من جهة أخرى. والقرآن الكريم حيثما يذكر: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لا يقصد هذه الفئة وإنّما يقصد الفئة التي عرضت عليها الحقيقة لكنّها أبت قبولها عناداً. الكفر معناه التغطية، والذي يريد تغطية الحقيقة وإخفاءها مقصّر، وهؤلاء هم الذين يصفهم القرآن بالقول: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[2].

حقيقة الإسلام التسليم لا العلم وعدم العلم. والمعرفة وكشف الحقيقة لا تكفي وحدها ليكون الشخص مسلماً. حينما تكشف الحقيقة للإنسان يجب أن

= لها جواباً، بل ولا تجده قد سمعها طوال حياته. مثل هذا الشخص يقال له قاصر، لأنه فتح عينيه على الحياة في مثل هذه الظروف، ونشأ في أسرة لا تعرف الصوم والصلاة. وسار على ذات النهج الذي كان عليه والداه، وهو لا يعي هذه القضايا ولا يجد من يوعيّه لها. وفي القوانين المدنية والحكومية لا يؤاخذ أمثال هؤلاء الأشخاص على بعض جرائمهم لأنهم لا يعلمون ولم يسمعوا طوال أعمارهم باسم «القانون المدني».

(١) سورة التوبة: ١٠٦.

(٢) سورة النمل: ١٤.

يكون رد فعله إزاءها: «آمنّا وسلّمنا وصدّقناه» هذا هو الإسلام. وإلاّ أسألكم: هل الشيطان كافر أم لا؟ كافر بلا شكّ. والقرآن يصرّح أيضاً بالقول: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١]. ولكن هل الشيطان ـ الذي يسمّيه القرآن كافراً ـ كان يعرف الله أم لا؟ كان يعرفه أكثر من غيره إلى درجة أنّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾[٢]. هل الشيطان لا يعرف الرسول ﷺ وعباد الله؟ كان يعرفهم تمام المعرفة؛ لأنّه قال:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

بمعنى أنه كان يعرف عباداً لله يسمّيهم المخلصين ويعلم أنه لا سبيل له عليهم. وكان يعرف الأئمة أيضاً كما يعرف الأنبياء، وكان يعتقد بيوم المعاد، وذلك قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤].

إبليس هذا الذي يعرف الله والرسل والمعاد ـ وهي الأركان الثلاثة التي نعتبرها شرطاً للإسلام ـ وفي الوقت نفسه يقول فيه القرآن أنّه كافر. لأنّ ملاك الكفر ليس العلم أو عدمه، ولا ملاك الإسلام هو العلم أو عدمه. ملاك الإسلام هو أن يعلم الإنسان ويسلّم للحقيقة. وملاك الكفر هو أن يعلم ولكن يعارض الحقيقة التي تعرض عليه.

إذن وصف القرآن أعمال الكافرين كتل تراب هبّت عليه ريح عاصف، في موضع، أو كسراب يحسبه الظمآن ماءً، في موضع آخر، أو كظلمات في بحر، ينطبق بأجمعه على الناس الذين عرضت عليهم الحقيقة إلاّ أنّهم في الوقت نفسه أعرضوا عن الإذعان لها. القرآن يرسم لهذا الموقف صورة مدهشة هي: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٥]. يقولون: اللهم إن كان محمد مبعوثاً من عندك حقّاً فامطر علينا حجارة من السماء لكي لا نرى. وهذا هو معنى الكفر.

---

(١) سورة ص: ٧٤.
(٢) سورة ص: ٨٢.
(٣) سورة الصافات: ٧٤.
(٤) سورة ص: ٧٩.
(٥) سورة الأنفال: ٣٢.

أما الطبقات الأُخرى؛ فهم الناس الذين تنطبق عليهم كلمة الكافر بمعنى غير المسلم، وهم القاصرون أو وفقاً للتعبير القرآني: «مستضعفون» أو: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾. ولعلّ أكثرية الكفار وغير المسلمين من هذا القبيل. وقد يكون بعض القرويين والأميّين وسكان المناطق النائية من هذا الطراز أيضاً، أي لم تصلهم الحقيقة. وحتّى بعض العلماء أحياناً ينطبق عليهم نفس الوصف؛ على سبيل المثال اذكر هنا قصّة الفيلسوف ديكارت الذي بدأ فلسفته من الشكّ؛ بمعنى أنّه سلك طريقاً فلسفياً ثم أُدرك أنّه وصل إلى طريق مسدود. فألغى جميع المسالك وشرع ثانية من البداية. ثم أنّه شكّ وقال: أُريد أن أشك في كلّ شيء لأرى من أين أحصل على اليقين؟ لم يشكّ بالأُمور الدينية فحسب، وإنّما شكّ بجميع الأُمور، وقال: لعلّه لا وجود لله ولا للأنبياء، أو لعلّه لا يوجد عالم، أصلاً ولا وجود لحجم ولون وحرارة ومادّة الوجود، وأن كلّ هذا وهم. ألا يرى الإنسان في النوم أحياناً عالماً فسيحاً ولا يشكّ أثناء النوم أنّ ما يراه حقيقة، ولكنه حين اليقظة يرى أن كلّ ذلك كان وهماً. ثم قال: أنّني مهما شككت فأني لا استطيع الشكّ في أنّني أشكّ.

إذن هناك شك وهناك شخص شاك وهو أنا، إذن لو لم يكن أي شيء في العالم نبقى أنا وشكّي موجودين. ثمّ قال: لقد عثرت الآن على نقطة وها أنا أتمسّك بها وأجعلها كخطوة أُولى انطلق من عندها. ثمّ فكّر في ما بعد وقال: إذا كنّا أنا وشكّي موجودين، هل لا بدّ من وجود شيء آخر سوانا لنكون أنا وايّاه موجودين؟ ولاحظ على أثر هذا الافتراض ـ الذي يستلزم شرحاً طويلاً ـ أنّه لا يمكنه إنكار وجود الله. فالله موجود، والروح موجودة، والجسم موجود. وتدرّج شيئاً فشيئاً نحو سائر الأشياء فقبل منها ما كان يقبله سابقاً وأنكر البعض الآخر. ثم اتّجه نحو الأديان. وهنا يشعر الإنسان أنّ ديكارت كان يتّصف بالواقعية والإنصاف. درس الأديان الموجودة في محيطه واحداً تلو الآخر؛ ووصل إلى نتيجة مفادها أنّ الدين المسيحي خير الأديان الموجودة. ولكنه قال: أنّه لا يدّعي أنّ الدين المسيحي أفضل الأديان في العالم، لأنّه لا يعلم سائر الأديان الموجودة في العالم ـ وقد سبق لي وأن أشرت إلى أن العالم لم يكن قبل ثلاثمائة وخمسين سنة كما هو عليه الآن ـ ومع هذا فلا زالت الكثير

من الحقائق غير متكشفة للعالم، فما بالك في ذلك الوقت؟! إذ قد تكون هناك أديان أُخرى خير من الدين المسيحي. والمدهش في الأمر أنّه حينما أراد أن يضرب مثلاً لبقعة من الأرض قد يكون فيها دين لا يعرفه قد يكون أفضل من المسيحية، ذكر إيران وقال قد يوجد في إيران دين خير من المسيحية.

مثل هذا الإنسان الذي لا يضمر في قلبه أي تعصّب وإنّما فتحه للحقيقة، حتى وإن لم يبلغها، فهو من المستضعفين والقاصرين ولا يمكن اعتباره كافراً بمعنى من تكشفت له الحقيقة وعاندها وجحدها.

نأتي بعد هذا الموضوع إلى الحديث عن قبول العمل عند الله، أو حسب تعبير القرآن صعود العمل إليه. أنّ القبول عند الله ليس كالقبول عندنا الذي يعتبر مسألة تعاقدية. جوهر وواقع أعمال الإنسان منوط بدرجة إخلاصه ونيّته وطهارة روحه. أحياناً يصعد عمل الإنسان إلى الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1]. وأحياناً أُخرى يهبط إلى الأسفل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[2].

جاء في رواية أنّ الصلاة التي نصلّيها تخرق الحجب السبعة ـ بعد أن تتجسّد على هيئة نور يصعد إلى الأعلى ـ أحياناً، وأحياناً أُخرى يقال للملائكة الذين يصعدون بصلاته ليعرضوها على جهة أعلى: «**لفّوها في خرقة**» وارموها على وجه صاحبها. الكثير من الصلوات تنزل بدل أن تصعد. وقد يعمل الإنسان أحياناً عملاً صالحاً حقّاً يقصد به القربة إلى الله ويتجسّد على هيئة نور ويصعد إلى الأعلى. ولكن يأتي الشيطان في ما بعد ويوسوس له. أو أنّه لم يكن وقت العمل يقصد الرياء، ولكنّه في وقت آخر يجلس في مجلس فيطرأ على ذهنه خاطر كالقطّة التي توضع في كيس وتحاول الإفلات منه بسرعة يجعله يرائي في عمله فيقول مثلاً: بلغنا أنّ شخصاً كان في ضيق وبذلنا له العون. وهنا يُؤمر بتنزيل عمله. وإذا تكرّر منه الرياء ينزل درجة أُخرى وهكذا إلى أن

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

(٢) سورة المطففين: ٧.

يستقر به المقام في سجين؛ أي جهنّم. ومعنى هذا أنّ العمل يصبح في مستوى شراب الخمر.

إذن لأعمال الإنسان نظام واقعي، ولأجل أن يصعد عمل الإنسان لا بدّ وأن يقصد هو الصعود وهو ما نسمّيه بقصد القربة؛ أي أن تكون النيّة خالصة. وإلاّ فمن المستحيل أن لا يقصد الصعود ويصعد عمله تلقائياً. وهذا معنى قولنا أنّ الإنسان لا بدّ وأن يكون لديه إيمان بالله وباليوم الآخر ـ وهو قصد القربة. ومن لا يقصد القربة يجب أن لا ينتظر صعود العمل؛ لأنّ مثله في ذلك يكون كمثل من يرمي حجراً نحو الأسفل ويقول: لماذا لا يسير هذا الحجر إلى الأعلى؟ والإيمان بالله وباليوم الآخر شرط لقبول العمل وصعوده.

ولكن في الوقت نفسه هناك آفة لهذا العمل تفسد الصالح منه، كالعناد مثلاً والكفر، من خصائص العناد أنَّه يحبط عمل الإنسان فقد يعمل رجل مسيحي عملاً يقصد به وجه الله، من البديهي أنّ عمله لا يضيع عند الله. ولكن هذا الشخص نفسه إذا عاند في موضع آخر، أي إذا سمع حديثاً للرسول ﷺ مثلاً يقف منه فوراً موقفاً معارضاً، فمن الطبيعي أن يؤدي كفره هذا إلى إحباط عمله ذاك. أو قد يؤدّي الرجل السنّي عملاً يقصد به القربة إلى الله فيصعد عمله إلى الله طاهراً ومقبولاً، لكنّه إذا عاند وأنكر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام من الطبيعي أن تذهب كلّ أعماله هدراً.

وليس العناد وحده هو الذي يؤدّي إلى هذه الحالة، بل ثمة أشياء كثيرة أُخرى تؤدّي إلى إحباط العمل. وليس الأمر مقصور على معاندة النبوة والإمامة أو التوحيد؛ بل هكذا الحال في الموارد الأُخرى أيضاً، كأن يأتي شخص ويسألني أمراً فأجيبه فيخبرني أنّه سمع من شخص آخر جواباً آخر، ولكنني مع يقيني بصحّة جواب الآخر لكنّني أصر على رأي لأثبت أنني أفضل علماً من غيري، واضطر إلى انتهاج أسلوب اللف والدوران والتبرير للبرهنة على صحّة قولي. هذا أيضاً نوع من العناد، في مثل هذه الحالة لا يمكن أن تقبل صلاتي مع كلّ ما اتّصف به من الأنانية والعناد بحيث لا أتنازل عن رأي واعترف بخطئي. وهكذا الحال في صفة الحسد. قال رسول الله ﷺ: «**أنّ الحسد**

ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[١]. وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ مدح عملاً وقال: «**لكل من فعله شجرة في الجنّة. فقال له أحد الحاضرين: يا رسول الله إذن ما أكثر شجرنا في الجنّة. فقال رسول الله ﷺ: نعم إذا لم ترسلوا عليه ناراً تحرقه**»[٢].

إذن انظروا أنّ الكافر إذا لم يكن يؤمن بالله وباليوم الآخر، ولا يؤدّي عملاً في سبيل الله لا يصعد عمله. وإذا أدّى مثل هذا العمل ولكن مع الكفر والعناد فإنّ كفره وعناده يحبط عمله مثلما يُحبط حسدنا أعمالنا. وكلّ عمل صالح يؤدّيه إذا لم يكن في سبيل الله وقربة لله فهو أجوف وسراب وميت لا روح فيه. فما بالك بالكافر إذا كان كفره عناداً وجحوداً، وإذا أضاف له ذنوباً أُخرى. إذا ارتكب الكافر ذنباً يكون أمره: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

ولكن لماذا مثّل القرآن لهذا بالبحر اللجي، أي العميق، لأنّ هذا تشبيه لموضع لا يصل إليه النور على الاطلاق. وقد ثبت اليوم أكثر مما سبق أنّ النور يخترق الماء. فإذا كان في حوض ماء صافٍ يمكن مشاهدة قعر الحوض، ولكن إذا كان الماء كثير العمق فلا يصل إليه النور، وخاصة إذا تجاوز عمقه عدّة آلاف من الأمتار؛ هناك يكون الظلام مطبقاً.

كانوا في مضى يتصورون عدم وجود أي نوع من الحياة في أعماق المحيطات لأن النور لا يصل إلى ذلك الموضع على الاطلاق إضافة إلى شدّة ضغط الماء. ولكن ثبت الآن وجود أحياء مائية هناك وأنّ الله خلق كائنات تعيش هناك وتنتج بذاتها ما تحتاج إليه من النور. إذن ذكر البحر اللجّي كمثل للموضع الذي لا يبلغه النور على الاطلاق. والقرآن هنا لا يذكر مجرّد كلمة البحر ـ الذي قد يشمل بحاراً يصل النور إلى قعرها ـ وإنما يقول «بحر لجّي» إشارة إلى أنّه على درجة من العمق لا ينفذ إليها النور. والقرآن هنا لا يريد الإشارة إلى أنّ كلّ واحد من تلك الظلمات قد أحاطت بها، وإنّما هي واقعة في قبضة عدّة ظلمات بعضها فوق بعض كلّ واحد منها يمنع وصول النور،

---

(١) أصول الكافي، باب الإيمان والكفر، باب الحسد، الحديث ٢.

(٢) بمعنى غير المسلم بما فيهم أهل الكتاب وغيرهم.

إضافة إلى سطح البحر متلاطم الأمواج ناهيك عن أنّ الجو كان ملبّداً بالغيوم التي تمنع وصول نور الشمس وضوء القمر.

وهذا التشبيه كلّه وكأنه يتحدّث عن إنسان في قعر البحر وهناك عدّة عوامل تمنع وصول النور إليه. وهذا المثل على العكس تماماً من ذلك المثل الذي ورد في آية النور، وفسّر على عدّة وجوه. ومن جملة ذلك أنّه جاء في رواية أنّه مثل المؤمن أيضاً:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[1].

هنا يفترض أُناساً في موضع فيه نور على نور؛ نور فطرتهم، ونور النبوّة، في حين تجد في موضع آخر أُناساً يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض فقدان نور الفطرة بذاته ظلمة، إضافة إلى ظلمة العناد، وظلمة أخرى هي ظلمة الذنوب والمعاصي المتواصلة ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ لأنّ كلّ قطعة ظلام تقابل نوراً؛ نور النبوة، ونور الوحي، وهداية الوحي. وحيثما لا تكون هداية الوحي فمعناه ظلمة. إضافة نور الفطرة وهداية الفطرة. وحيثما ينطفىء نور الفطرة فمعناه وجود الظلمة، وأيضاً نور العمل الصالح لأننا أشرنا إلى أن ﴿...وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2] ومن خواص العمل الصالح أنه ينير القلب.

إذن هذان المثلان اللذان ذكرهما القرآن أحدهما يشبّه أعمال الكفار بالسراب. والمراد هنا أعمالهم التي بنوا عليها الآمال. ويؤكّد أنهم ما لم يكن إيمانهم بالله سليماً وما لم يهتدوا بنور الله لا خير في عملهم. والمثل الثاني لذنوبهم. وذكر المفسرون وجوهاً عدّة للسبب الذي جعل القرآن يذكر مثلين لذلك. ولعلّ أكثر وأفضل الوجوه هو أنّ المثل الأول لعملهم الصالح والمثل الثاني لعملهم السيّء. وسبق أن أشرنا إلى أنّ القرآن يذكر مثلاً آخر لأعمال

---

(١) سورة النور: ٣٥.

(٢) سورة فاطر: ١٠.

الكافرين بأنه كتل تراب هبت عليه ريح عاصف. وهذا المثل لأعمالهم الصالحة التي يؤدونها بقصد القربة إلى الله إلاّ أنّ كفرهم أو أسباب أُخرى أدّت إلى إحباطه. والقرآن يؤكد على هذا المنطق سواء بشأن المسلم أم بشأن الكافر؛ فيقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1] من الطبيعي أنّ الله تعالى لا يهدم العمل الصالح إذا كان صالحاً إلاّ أن النظام التكويني يقضي بأن الذنوب التي يرتكبها هؤلاء تؤدي إلى إحباط عملهم.

هذه الأمثلة الثلاثة يذكرها الباري تعالى لأعمال الكافرين وكما أشرت فإنّ المقصود من الكفار هنا ليس كلّ من هو غير مسلم، بل الذين يتصدّون للحقيقة ويعارضونها. والآية الأخرى تتحدّث أيضاً عن مشهد من النور على العكس من الآيتين اللتين تتحدثان عن الحرمان من نور الوحي، والحرمان من نور الفطرة؛ أو ما يسمى بالظلمة. وهي هنا لا تتحدّث عن الإنسان الذي يعارض الحقيقة، بل تشير إلى أن ذرات العالم مضيئة كلّها بنور الله. وأنّ كلّ موجود في العالم يعرف ربّه ويسبّح له. والقرآن هو أول من ذكر أن الإسماع إذا كانت مصغية والقلوب إذا كانت واعية وبصيرة يستشعر المرء حينها أنّ الوجود كلّه يذكر الله ويسبّحه. وهو ما سنأتي على شرحه وبيانه في المجلس القادم بإذن الله. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

المخاطب في هذه الآية هو رسول الله ﷺ، يقول له: ألا تشاهد ـ أي تشاهد وترى ـ أنّ كلّ ما في السماوات وما في الأرض والطير كلّها تسبح لله. وهو تعالى عليم بفعلهم.

تتحدّث جميع الآيات التي فسّرناها من سورة النور من أولها وإلى هنا عن مشاهد مختلفة من النور والظلمة، والظلمة طبعاً لا تعني سوى الحرمان من النور وتصدق فقط على الناس الذين لا ينتفعون بأحد الأنوار التي خلقها الباري تعالى وكلّف الإنسان بالاستنارة بها. الإنسان ـ على سبيل المثال ـ مكلّف بالاستهداء بنور الوحي والنبوّة، والاستعانة بنور فطرته. ولكنه إذا لم يستغل تلك الأنوار يتخبّط في الظلمة. ونور الله يملأ الوجود برمّته: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

تتحدّث هذه الآية عن موضوع ذكره القرآن بعبارات مختلفة في مواضع أُخرى. والحقائق التي يذكرها القرآن أسبق من الإنسان على الدوام، وهو أمر طبيعي ـ وعليه أن يحاول اللحاق بها ولا يرتجي أن يتحدّث القرآن في حدود معلوماتنا دوماً، لأنّ هذا المعلومات يمكن تطويرها وتوسيعها ـ وكلّ من يبغي

---

(١) سورة النور: ٤١.

الاهتداء بنور القرآن لا بدّ أن يصغي لنداء القرآن ليسمع فحواه. وأحد المواضيع التي يؤكّد عليها القرآن هو تسبيح وتمجيد الموجودات لله. يشير القرآن في بعض المواضع إلى أنّ جميع ذرّات الكون تسبّح لله وبحمده. بمعنى أنّ الخشب والحديد ـ في منطق القرآن ـ يسبّحان لله، وذرات الهواء تسبّح له، وكل خلية ونواة تسبّح له.

لننظر أولاً ونرى هل القرآن يصرّح بهذا أم لا؟ ثمّ نرى بعد ذلك كم استطاع الإنسان بفهمه وعرفانه وعقله الاقتراب من هذا المنطق القرآني؟.

لقد صرّح القرآن بهذا المعنى في مواضع متعددة وبعبارات مختلفة. اقرأ عليكم في ما يلي ما يحضرني منه. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]. لا يمكن لأحد أن يزعم أنّه وضع أذنه على هذه الشجرة أو على ذلك الحجر لكنه لم يسمع شيئاً من التسبيح والثناء، ولا حتّى من ذرّات بدنه. القرآن يقول، أنّ جميع ذرات الكون، وكل خلية في اللحم والعظم والجلد والدم والشعر تسبّح لله على الدوام، في حين أنا لا أسمع شيئاً من ذلك. هنا يقول القرآن بلى أنكم لا تفهمون شيئاً من ذلك ولا تدركونه. لم يقل القرآن: لا تسمعون، بل قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾.

وهناك فارق بين هذين التعبيرين؛ لأنه لو قال: «لا تسمعون» فقد يعني ذلك أننا نفقه وجود مثل هذا الأمر ولكننا لا نسمعه، مثلما نفهم الآن أنّ هذا الجو مليء بالأمواج الراديوية التي تبثّها مختلف محطات الإرسال في العالم، لكننا لا نسمعها. بينما يقول القرآن أنكم لا تدركون هذا الأمر فضلاً عن عدم سماعكم إياه.

وقبل الانتقال إلى تفسير آيات أُخرى، أورد في ما يلي الفرق بين «التسبيح» و«الحمد» في قوله: ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ لأنّ التسبيح والحمد من جملة ما نمارسه نحن، ولأجل أن نفهم ما المراد من قولنا في الصلاة «سبحان ربي العظيم وبحمده» أو قولنا: «سبحان ربّي الأعلى وبحمده» أورد هذه المقدّمة:

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

ينقسم الثناء على الله إلى شكلين: أحدهما التسبيح، والآخر الحمد. التسبيح معناه التنزيه؛ أي تنزيهه عن كلّ ما ذاته مبرّأة منه، وجعله فوق ما هو من شأن مخلوقاته وكل ما ينم عن نقص أو عجز. وكلمة «سبحان» تعني أساساً تنزيهه عن إمكانية رؤيته بالعين ولمسه باليد، وتجسيمه، أو حدّه بمكان معيّن، أو اعتباره محتاجاً، وكذلك تنزيهه من الظلم أو أن نشرك معه أحداً، أو نعتبره مركّباً، أو نقول من أين جاء وكيف حصل؟ فالتسبيح إذن معناه أن ننفي عنه الصفات التي نعتبره فوقها وأسمى منها.

الثناء على الله على غرار التوحيد الذي ينطوي على صفحتي النفي والإثبات. فحينما نقول: «لا إله إلاّ الله»، ننفي وجود إله ومعبود غيره من جهة، ونثبته لذاته من جهة أُخرى.

وكذلك الثناء على الله يحمل في الوقت نفسه معنيي النفي والإثبات. فالنفي بمعنى تنزيهه عن بعض الصفات التي لا يليق أن ننسبها إليه، وهو ما مرَّ ذكره. أما الحمد فهو وصفه بالصفات الثبوتية فنقول: أنّ النعم كلّها منه، والكمالات كلها له، وأنّه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير. وهو بصير وحي وسميع وقيّوم وملك ومؤمن ومهيمن وعزيز وجبار ومتكبّر. وهذه هي الصفات الثبوتية.

إذن فنحن في قولنا: «**سبحان ربي العظيم وبحمده**» أو: «**سبحان ربي الأعلى وبحمده**» نتصوّر في أذهاننا مجموعة كبيرة من النواقص وننزّه الله عنها، ونتصوّر أيضاً سلسلة من الكمالات وننسبها إليه. وعندما نقرأ في الصلاة سورة الإخلاص فهذه السورة فيها صفات سلبية وصفات إيجابية، ونقول بعدها: «كذلك الله ربي» بمعنى أنّه يتّصف بهذه الكمالات وأنّه منزّه عن كلّ نقص كأن يكون له ولد أو يكون له شبيه.

القرآن يقول: أنّ عمل التسبيح هذا الذي تؤدّونه بإرادتكم واختياركم، تؤدّيه جميع ذرات الوجود. هذه آية من آيات القرآن التي تتحدث عن التسبيح والحمد. كما توجد في القرآن ست سور تبدأ بتسبيح الله، وتسمى بسور المسبّحات. سورة الحديد تبدأ بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وتبدأ سورتا الحشر والصف بـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وتبدأ سورتا الجمعة والتغابن بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. كما أنّ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ﴾ أمر يفيد التسبيح.

جاء التسبيح في هذه السور الخمسة بصورة الماضي في ثلاثة موارد، وبصورة المضارع في موردين. وتعني «ما» هنا أنَّ كلّ شيء في السماوات والأرض يسبّح لله. ويقول القرآن: أن جميع الموجودات تسجد لله، وهذه هي حقيقة السجود، أي أن سجود الإنسان ينمّ عن خضوعه. جميع الموجودات من شمس وقمر ونجوم تسجد لله. ومن الواضح أنّه ليس المراد هنا أنّ للشمس جبهة تضعها على التراب. سجود الإنسان دلالة على غاية الخضوع[١] من أجل أن تخضع الروح. إذن هناك آيات في القرآن استعملت كلمات: «سبّح» و«يسبّح».

كما أن هناك آيات أُخرى جاءت على ذكر هذا الموضوع بشكل آخر؛ فبيّنت مثلاً أن الجمادات أو النبات أو الحيوانات تنسّق في ما بينها على تسبيح كذا مقام مقدس معنوي إلهي. يقول القرآن الكريم عن النبي داود: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢][٣]. ثم يقول بعد ذلك: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾[٤].

ومن جملة الآيات التي تحمل هذا المعنى هي هذه الآيات من سورة النور، والمخاطب فيها هو رسول الله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٥]. والمعنى هنا لا يخصّ المؤمنين وإنّما كلّ أهل الأرض. والأسمى من ذلك أنّه أضاف: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، أي أنّ كلّ من الجبال

---

(١) طبعاً تجسيد ظاهري جداً. فالمصلّي إذا كان فكره مشتّتاً هنا وهناك، حتى وإن سجد على التربة وظهر وكأنّ بدنه خاضع إلاّ أنّ روحه غير خاضعة أساساً.

(٢) سورة ص: ١٧.

(٣) داوود من أنبياء بني إسرائيل، وقد أعطاه اليهود هو وسليمان صبغة يهودية وقالوا أنّهما كانا من ملوك الدنيا ومن الميّالين إلى الشهوات. إلاّ أنّ القرآن وصفهما بما يستحقانه من مكانة.

(٤) سورة ص: ١٨ ـ ١٩.

(٥) فسّر بعض المفسّرين معنى «ألم تر» بأنّه هل تعلم، وأرادوا تعميمها إلى غير الرسول ﷺ ولكن قال غيرهم بأن معنى «ألم تر» هو هذا المعنى: ألم تشاهد، والمخاطب بها هو الرسول.

والشجر والطيور والناس وكلّ كائن آخر عالم بتسبيحه وبصلاته. والمدهش في الأمر أنّه عبّر هنا عن هذا المعنى بالصلاة. فنحن سبق وأن أشرنا إلى أنّه عبّر عن هذا المعنى بالتسبيح تارة، وبالحمد تارة، وبالسجود تارة أُخرى، ولكن هنا عبّر عنه بالصلاة. والظاهر أنّ بعض المفسّرين قالوا: أنّ المقصود بالصلاة هو الدعاء، ولكن في الحقيقة هي الصلاة، وروح الصلاة الدعاء. القرآن نفسه عبر عن ذلك بالصلاة.

وهذا يعني وجود مثل هذه الآيات في القرآن الكريم ولا ينبغي التحقيق أولاً في المقصود من التسبيح. القرآن يؤكّد أن جميع ذرّات الكون تسبّح لله وتحمده ولكن بني الإنسان لا يفقهون هذه الحقيقة التي حينما ذكرها القرآن لم يكن يستهدف بقاءها لغزاً غامضاً لا يمكن حلّه إلى الأبد، بل صرّح بها لأجل أن نسعى لإدراكها وكشفها على قدر قابليتنا على استيعابها.

قلنا يجب أن نسعى في الخطوة الثانية لاستكناه الجهود التي بذلها بنو الإنسان بعد تلقّيهم لتوجيهات القرآن في هذا السبيل، وكيف حاولوا تفسير هذه الآيات.

فُسّرت هذه المجموعة من الآيات على وجهين يمكن القول أنّهما كلاهما يتّسمان بالحكمة والعرفان؛ بعضها فسّر تفسيراً حِكَمياً وقيل: أنّ مقصود القرآن من القول أن كلّ شيء يسبّح لله هو التسبيح التكويني و«لسان الحال». ولسان الحال هو ما يقابل «لسان القال»، ومعناه أن يكون ظاهر الشيء معبّراً عن حاله وعمّا يريد قوله؛ كأن يأتي إليك شخص يرتدي ثياباً رثّة وأنت تتحدّث مع صاحبك في الطريق ويقف أمامكما ويلوي رقبته ويمد إليكما يد الاستعطاء، ومع أنّه لا يفتح فمه إلاّ أنّ حالته تعبّر عمّا يريد قوله. هذا هو لسان الحال. ولكن حينما يأتي الشخص ويقول بلسانه: ساعدوني، أو تصدّقوا عليَّ. فهو ما يسمّى بلسان القال. وعلى هذا الأساس فالكثير من حالات الإنسان الظاهرية تنمّ عمّا في ضميره، أو كما يقال أنّ ما يخفيه الإنسان يظهر في قسمات وجهه.

ولكن كيف ينمّ عمّا في ضميره؟ وهو إذا لم يتحدّث كيف يُستدل عليه؟ الحقيقة أنّ الكثير ممّا يريد الإنسان قوله يفهم من خلال حالته. ولعلّ

الأشخاص حينما يلتقون يتفاهمون بلسان الحال أكثر من القدر الذي يتفاهمون به بالكلام. وقد ذكرت في كتابي المطبوع تحت عنوان «مسألة الحجاب» أنّ الكثير من الأزياء والحركات تعبّر عن لسان الحال. فالشخص حينما يسير وهو نافخ لغديه، ويحاول التحدّث بصوت خشن ويضرب الأرض برجليه بقوّة كأنه يريد الإيحاء للآخرين أن اخشوني وابتعدوا عني. وكذلك قد ترتدي بعض النساء ثياباً وتسير في الطريق وكأن ثيابها ومشيتها تعبّر بشدّة عن عفافها وسمو شرفها وكأنّها تريد القول أنني امرأة شريفة وليحذر الفاسقون من الدنو منّي[1] أو قد يحصل العكس أحياناً كأن ترتدي المرأة ثياباً تريد القول من خلالها أنني امرأة فاسقة ومن شاء فليتبعني. وهذا هو ما يسمّى بلسان الحال.

قال البعض أنّ قول القرآن كل شيء يسبح لله، المراد به لسان الحال، لأنّ كل شيء هو من خلق الله، ومن خواص المخلوق أنّه يتّسم في جانب منه بالنقص وجانب آخر بالكمال؛ فالنقص من عنده والكمال من خالقه. إذن فهو في الواقع يصف خالقه بلسان حاله وكأنه يريد القول: تبارك الله الذي خلقني. أما طريقة تسبيحه فكأنه يقول إن كان فيَّ نقص فهو مني، وأن الله تعالى منزّه من هذا النقص.

لا ريب في أنّ كلّ مخلوق يسبّح ويحمد خالقه بلسان حاله، فالمخلوقات تسبّح الله بلسان التكوين. وكلّ أثر يسبّح باسم موجده. ولكن هل هذا هو المراد من قول القرآن الكريم: ﴿مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾؟ لا ولكن هناك تفسير آخر أيضاً وهو:

التفسير الثاني ـ وقد سمّيته بالتفسير العرفاني ـ ومفاده: صحيح أن المخلوقات تسبّح خالقها بلسان حالها، إلاّ أن القرآن يضيف إلى ذلك: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. التسبيح بلسان الحال يفهمه الجميع. ناهيك عن أن القرآن يقول: «أن من شيء...» أي جميع الأشياء والموجودات وليس

---

(١) جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).
وقالوا في شأن نزول هذه الآية، وكذلك استنبطنا نحن أنّ المراد من: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ هو أن يرتدين من الثياب ما لا يلفت إليهن أنظار الذين في قلوبهم مرض، ولا يطمع فيهن طامع

العاقلة منها وذوات الشعور فقط. إلا أن الضمير «هم» في «تسبيحهم» يوحي بأن جميع الموجودات عاقلة ولها شعور. لأنّ هذا الضمير «هم» يستخدم في اللغة العربية للأشخاص وليس للأشياء. ومع أنّ القرآن يتحدّث عن الأشياء إلاّ أنّه جاء بضمير العاقل أي أنّه يريد القول بأنَّ جميع الأشياء عاقلة وذات شعور.

وجاءت في نفس هذه الآية كلمة «الطير»، ولولا وجود هذه الكلمة لقلنا أن القرآن يتحدث عمّن في السماء والأرض؛ فالذين في السماء هم الملائكة، والذين في الأرض هم بني الإنسان، والمراد بهم المؤمنين الذين: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. ولقلنا أنّ الناس والملائكة عالمون بتسبيحهم. ولكن وردت كلمة «الطير» التي ليس لها عقل وشعور الناس والملائكة. يتضح إذن أن في عالَم الطير أموراً لا نفقهها.

ذُكر أن التفسير الأول حِكَمي. للحكيم أبي نصر الفارابي وهو من أكابر حكماء العالم الإسلامي عبارة جميلة ـ اعتقد أنها وردت في كتاب الفصوص ـ أكّد فيها على هذا المعنى، أي معنى لسان الحال، وقال: «صلّت السماء بدورانها والأرض برججانها والمطر بهطلانه». لأنّ جوهر وحقيقة الصلاة ما هي إلاّ التسليم للحقّ وإطاعة أمره.

إلاّ أنّ «مولوي» العارف يقول: أن الإنسان العادي لا يدرك تسبيح وحمد الكائنات التي تفهم خالقها حقّاً وتقدسه وتسبّحه وتحمده، وذكر هذا الموضوع في مواضع متعددة. وخلاصة القول أنّه يقول: ما من ذرّة في الكون إلاّ وهي سائرة على هذا المنوال.

لنرى الآن ما هو مراد القائلين بأنّ ضجيج تسبيح الكائنات يملأ الكون. هل يقصدون أنّ الضجيج موجود الآن في الفضاء ونحن لا نسمعه كما هو الحال بالنسبة للأمواج الراديوية؟ كلا؛ بل يقصدون أنّ كل موجود وكل ذرّة في هذا الكون لها وجهان: وجه نحو هذا العالم وهو وجه ميّت. ووجه آخر نحو العالم الآخر وهو وجه ملكوتي يكون كل موجود وفقاً له حياً وذا شعور. ويقولون مثلاً أن الخشبة التي تراها لا تدرك كل حقيقتها. وحتّى أن أعمق

العلوم البشرية الذي يصل حتّى إلى عمق الذرات لا يدرك إلاّ وجهاً واحداً منها. أمّا وجهها الآخر فهو خارج إطار الحس البشري. ولا يدركه إلاّ أصحاب الحقيقة والمعنى والقلوب الصافية، وحينما يتسنّى لهم إدراكها يفهمون حينذاك إلى أي حدّ هي فاهمة ومدركة ومسبحة وحامدة.

النبي داوود كانت تسبّح معه الجبال والطير، ولو كنّا إلى جانبه لما سمعناها لأنّ هناك أُناسٌ آخرون كانوا إلى جانبه وما كانوا يسمعونها. داوود كانت له أذن أُخرى يدرك باطن وملكوت الأشياء. وذلك إذا فتحت أذان قلوبنا نستطيع أن نسمعها أيضاً ولا يتوهم البعض أنّ هذه مرتبة بعيدة لا يبلغها إلاّ الأنبياء. كلاّ، ليس من الضرورة أن يكون نبياً. كان من جملة معجزات رسول الله ﷺ أنّه قبض قبضة من الحصى ورآها الناس تسبّح وهي في كفّه. ولم تكن معجزة الرسول في استنطاق الحصا بالحمد والتسبيح، وإنما تكمن في فتح أذان الناس ليسمعوا تسبيح الحصا لأنّ الحصا تسبّح على الدوام.

أورد لكم في ما يلي مثلاً لشخص موثوق من الجميع وكان قد عاش في وقت قريب لأثبت لكم أن هذه الأمور ليست خارقة للعادة إلى ذلك الحد الذي يتصوره البعض، وذلك هو الشيخ عبّاس القمي (رضوان الله عليه) الذي كان يعرف بشدة التقوى. وكان قد نقل هذه القصة من على المنبر في مدينة قم، وقد سمعتها من اثنين من مراجع التقليد الأحياء حالياً وكانوا قد سمعوها منه أحدهما: آية الله «الكلبايكاني» الذي قال: كنت جالساً عند منبره وسمعته قال: كنت في شبابي على درجة عالية من صفاء القلب ـ وحالياً لست كذلك ـ وذهبت ذات يوم لزيارة وادي السلام وتناهى إلى سمعي وكأن أصواتاً مهيبة تنبّث من أماكن بعيدة وكان الصوت يشبه صوت بعير يراد كيّه وهو يهدر. ولكن بعدما نظرت هنا وهناك لم أجد أثراً لبعير، لكن صوت الرغاء كان قوياً، ولاحظت في الأثناء أشخاصاً يتحركون في تلك الجهة البعيدة من وادي السلام، فتصوّرت أنّهم يكوون جملاً لهم، فسرت صوبهم وانتبهت إلى أنّ الصوت كان قادماً من

هناك ولكن لا أثر لجمل، بل أنّهم جاؤوا برجل ميّت ليدفنوه، وأنّ الصوت صوت الميّت، وأنا أسمعه بهذه القوة وهم لا يسمعوه.

فلا يتوهّم أحد أن الجميع يسمعون كلّ ما في الكون من أصوات. بل أن هذا الصوت صوت آخر، والأذن يجب أن تكون من نوع آخر.

قال المجلسي الأول ـ وهو والد المرحوم محمد باقر المجلسي مؤلّف كتاب بحار الأنوار ـ وكان رجلاً ورعاً وشديد التقوى وهو من تلاميذ الشيخ البهائي: ذهبنا برفقة الشيخ البهائي قبل ستّة أشهر من وفاته لزيارة القبور في منطقة تخت فولاذ في أصفهان ـ والتي يقع فيها قبر بابا ركن الدين ـ ورأيت فجأة أنّه التفت إلينا وقال: ألم تسمعوا شيئاً ثم سكت وواصلنا مسيرنا. ومنذ ذلك اليوم لاحظنا أن حالة الشيخ قد تغيّرت نوعاً ما وأخذ ينشغل بنفسه أكثر مما مضى، وصار في وضع يختلف عما مضى. وخمّنا نحن تلاميذه أن كل هذا التغيير سببه هو ما حصل في ذلك اليوم. وكنت أنا من أكثر تلاميذه جرأة، واتفقنا أن أسأله عما حَدَث وسبَّبَ له هذا التغيير. فذهبت إليه وسألته فقال لي: حينما مررنا بالمقبرة في ذلك اليوم سمعت صوتاً انطلق من القبر قائلاً: «يا شيخ فكّر بنفسك أنّ أجلك قريب، لماذا لا تفيق إلى نفسك!» وبعدها بستّة أشهر توفي الشيخ.

تلاحظون إذن أنّ الصوت الواحد يسمعه شخص من بين جماعة. ومن البديهي أنّ عالمنا أعقد وأعمق من هذا. والقرآن حينما يقول: إنّ ذرات العالم كلّها تسبّح لله ينبغي أن يقول أحدنا أنني لا أُصغي لذلك لا أسمع! وإذا لم تكن هذه الأصوات قد عثر عليها في المختبرات العلمية، فهذا الكلام منشؤه الجهل، والحقيقة شيء آخر غير هذا.

نقل عن رسول الله ﷺ أنّه قال: أول ما نزل عليَّ الوحي في غار حراء، وأنزل جبرائيل الآيات الأولى من سورة «العلق»:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

شعرت حينها وكأن العالم قد تغير بأجمعه، فانطلقت إلى الدار، وكنت

كلما خطوت خطوة أشعر وكأن الحصا وكل ذرات الكون تحييني وتسلّم عليَّ وتكلّمني. وهذا هو أساساً معنى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وأي مكان هذا الذي يخلو من نور الله؟! وهل من الممكن أن يكون نور الله في موضع ويخلو ذلك الموضع من الوعي والشعور والإدراك ومن الطبيعي أن إدراك كل موجود منوط بدرجته الوجودية.

وعلى هذا فنحن حينما نقول أن الجمادات مجرّدة من الحياة فكلامنا صحيح بمعنى أنها لا حياة لها كحياة النبات. كلاّ، فالنبات له حياة، وللحيوان حياة أعلى، وللإنسان حياة أعلى وأكثر كمالاً. الجمادات في أحد وجهيها لا حياة لها، ولكن لها في الوجه الثاني حياة وشعور وإدراك. وهذه هي الحقيقة التي علمنا إياها القرآن في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

سبق لي وأن أشرت إلى أنّ البعض قال أنّ معنى: «ألم ترَ؟» هو ألم تعلم؟ والمراد هو أن التسبيح يكون بلسان الحال. إلاّ أنّ المرحوم الفيض الكاشاني نقل في تفسيره «الصافي»[1] عن عالم كبير أنّ المخاطب في هذه الآية هو رسول الله ﷺ؛ أي أنّك أدركت كل هذا بالشهود.

وبما أن الآية وردت فيها كلمة «مَن»، لذلك اعتقد البعض أنّها تتّسم بالشمولية؛ وتشمل الملائكة في السماء، والإنسان في الأرض. بيد أن آخرين اعتقدوا أن «مَن» هنا تختلف عن «ما» الواردة في مواضع أُخرى؛ لأنّها تنسب إليها فعلاً من نوع الأفعال الخاصّة بذوات العقول. وأن استعمال «من» هنا لا يراد به القول هل المسبّحين هم من الناس أم من الملائكة. ولكن بما أنّ العمل الذي يؤدونه شبيه بعمل الإنسان، لذلك استعمل بشأن الأداة «مَن» وليس «ما».

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

---

(١) ج٣، ص٤٣٩.

فُسّرت هذه الآية على وجهين: أحدهما أنّ الله عالم بصلاة وتسبيح هؤلاء جميعاً. لكن الرأي الأفضل ـ وهو ما تدلّ عليه القرينة الواردة في الآية اللاحقة؛ لأنّ الآية اللاحقة تبيّن هذا المعنى ـ أنّهم واعون ومدركون لصلاتهم وتسبيحهم:

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[1].

هاتان الآيتان تتألّف الأولى منهما من جملتين، وهي بمثابة تتمّة لما ورد في الآية التي سبق تفسيرها. ومفادها هاتين الجملتين: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو أنّ كلّ شيء لله وتحت أمره وليس ثمّة موجود خارج إرادته ونفوذه وقدرته. والجملة الثانية هي: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. كلمة «المصير» مشتقّة من الصيرورة، أي التبدّل والتحوّل من حالة إلى أُخرى، كقولنا صارت النطفة علقة، وصارت العلقة مضغة، وصارت المضغة عظاماً، إلى أن صارت جنيناً، وصار الجنين صبياً، وصار الصبي رجلاً. عالمنا هو عالم الصيرورة. فلو أخذنا بنظر الاعتبار قطعة خشب، فهذه الخشبة التي نراها اليوم لم تكن خشبة على الدوام بل كانت شيئاً آخر ثم صارت «خشباً»، وهذا الخشب لن يبقى على هذه الحالة على الدوام وإنما سيتحول إلى شيء آخر.

والسؤال الذي يعرض على الأذهان هنا هو ما نهاية هذه التبدّلات والتحوّلات التي يصبح التراب على أثرها إنساناً، والإنسان تراباً، والماء

---

(١) سورة النور: ٤٢ و٤٣.

والتراب والهواء شجرة وتصير الشجرة حيواناً، ويصير الحيوان إنساناً؟ وإلى أين ستنتهي؟ وهل تبقى مستمرة بلا هدف؟ أم أنّ هذه الصيرورات تنتهي إلى الله، وهذه هي حقيقة المعاد؟ والواقع أن الآية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هي تعبير عن هذه الحقيقة. ومفادها هو نفس مفاد الآية الكريمة التي أمر القرآن أن يتلوها من يسمع بمصيبة، وهي ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. مع فارق أنّ تلك الآية فيها «إنّا» التي يوحي ظاهرها أنّها خاصّة بالإنسان، بيد أن هذه الآية ليس فيها شيء يوحي باختصاصها بالإنسان. وتقول أنّ كلّ شيء لله، ومن الله، وبما أنّ كلّ شيء من الله، فهذا دليل على أنّ كلّ شيء يؤول إليه.

من جملة الأدعية التي يُستحبّ قراءتها بين تكبيرات افتتاح الصلاة ـ وهي التكبيرات الستّة التي يستحب إداءها قبل تكبيرة الإحرام ـ هو الدعاء التالي:

«لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، عبدك وابن عبديك، ذليل بين يديك، منك وبك ولك وإليك».

التوحيد معناه: منك وبك ولك وإليك. وجاءت الآن في هذه الآيات من سورة النور اثنان منهما، وهما: «لك» و«إليك» ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ويبدو أنّ هذه الآية تعليل للآية السابقة، ليكون المعنى أنّ جميع الموجودات تسبّح لله وتحمده لأنّها منه وإليه. وإلى هذا فإنّ وجودها تسبيح، وصيرورتها تسبيح، وحركتها تسبيح. أي بما أنّها منه، فهي صائرة إليه.

والآية اللاحقة حتّى وإن كانت تتحدّث عن كيفية نزول الأمطار ـ من تكاثف الغيوم وهطول المطر والحالوب وخصائصه ـ وهو ما يُعتبر من جملة إعجاز القرآن، إلاّ أنني لا أتناولها بالبحث حالياً، وإنّما أرجؤها إلى المجلس

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦.

القادم بإذن الله. وطالما كنّا نتحدّث في موضوع تسبيح الكائنات وعودتها جميعاً إلى الله، رأيت أن أعرض موضوعاً آخر.

إنّ للدين رسالة لا يستطيع غيره النهوض بها؛ أي لا يستطيع العقل والعلم والفكر البشري إداء هذه الرسالة. ولو كان بميسور العلم والعقل البشري أداءها لأُنيطت به، ولما بُعث الأنبياء. لقد منح الإسلام للعقل البشري أهمية فائقة وكذلك للتفكير والعلم والتجربة والمشاهدة، وهو ما عبّر عنه القرآن بالسير في الآفاق والأنفس. ولكن ليس معنى هذا أنّ العلم والعقل والتجربة ـ مهما بلغ بها التقدّم ـ ستصبح قادرة على تقديم الدلائل التي يقدّمها الدين عن الكون والإنسان، وإنّما هذه رسالة الدين وحده. وما يشاهده الإنسان إنما هو حقائق بيّنها الدين وأيّدها العقل والعلم. أي كما قال «ويليم جيمس»: أنّها جاءت من بعد توجيهات الدين، أي بعد ما عرض الدين حقائقاً انطلق العلم ليستطلع حقيقة الأمر، وقد عثر على الأدلة المؤدية لصدقه.

وهذه هي أحد المهام التي يضطلع بها الدين، والتي تغيّر ـ حسب المصطلح العصري ـ رؤيتنا الكونية؛ أي تغيّر من نظرتنا للكون، فالعالم الذي نلمسه بحواسنا وندركه بعقولنا عالم من نوع آخر غير العالم الذي يرينا إياه نور الوحي. والحقيقة أنّه نفس العالم ولكن بنسيج أعمق.

الوحي يقول لنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وكذلك يعرض لنا أشياء عن الإنسان. وهذا هو الأمر الأكثر أهمية. الإنسان لديه عين وأذن، وحاسة ذوق، وحاسة شم، وحاسة لمس، وعقل وفكر ولا شيء غيرها. ولكن الأنبياء يأتون ويقولون لنا: أيّها الإنسان أنّ الكامن من وجودك أكثر من الظاهر منه. ولإيضاح هذا الموضوع أكثر أعرض في ما يلي مثلاً شعبياً، ثم اتّبعه بموضوع علمي.

أتذكر حينما كنا صغاراً كانوا يعبّرون عن الأطفال المحتالين جداً بأنَّ ما يختفي منه تحت الأرض أكثر ممّا تراه فوق الأرض. ومعنى هذا أنّه أكبر من هذا الحجم بكثير، وأكثر حيلة وذكاءً. كان هذا هو المثل الشعبي.

توصل العلم الحديث إلى مثل هذا الاكتشاف بشأن روح الإنسان. إذ كانوا يتصوّرون قديماً إنّ جسم الإنسان هو هذا الذي يراه، وروحه هي التي يستشعرها في سره وفي ضميره، وبما أنّه مطّلع على ما في قرارة نفسه وما في سرّه وضميره، فهو وإن كان جاهلاً بشيء آخر، غير جاهل بذاته. إلاّ أنّ علم التحليل النفسي أثبت أن جانباً صغيراً من روح الإنسان ظاهر أما الغالبية العظمى منها فخافية على نفسه. ويمثّلون لذلك بقطعة ثلج تلقى في حوض ماء فالظاهر منها هو الظاهر من روح الإنسان والمغمور منها كالجزء المغمور من روح الإنسان. ويسمى الجزء المخفي من روح الإنسان بالشعور الباطن الذي يخفى ما فيه حتى على الإنسان ذاته أحياناً. وينمّ عمّا في مكنونه أحياناً عند رؤية المنام أو عند الغضب.

للشاعر المولوي آراء في علم النفس تثير الدهشة. وبالرغم من أنَّ علماء التحليل النفسي اكتشفوا هذه النظرية في القرن العشرين إلاّ أنّ هذا العارف وعارفين آخرين كانوا على اطّلاع بأمثال هذه الأمور. يقول المولوي: أيّها الإنسان لا تتوهّم أنّك قد عرفت باطن نفسك جيداً. ثم يورد أبياتاً من الشعر مفادها أنّك إذا خلعت ثيابك يوماً ما وأردت الاغتسال بماء النهر ووجدته قد راق وصفا وليس فيه كدورة ودخلت فيه وأحسست بوخزة فاعلم أن هناك شوكة قد نغزتك ولكنّك لم تكن على علم بها، ولا يمكنك أن تراها، لكنّك تشعر بها من خلال الألم الذي أصابك منها.

ثم يقول: أيّها الإنسان إذا تصوّرت نفسك أحياناً أنّك نقي وطاهر لا عيب فيك ولا نقص، ولكنك لو دققت النظر لفهمت من وخزة أنّ في ذاتك أشياء لا علم لك بها.

ويذكر مثلاً آخر يشبّه فيها الإنسان بحوض ماء رسبت فيه أوساخ كثيرة ولكن إذا جاءه الإنسان صباحاً وجده صافياً نقياً لا شائبة فيه، غير أنّه ما أن تشرق الشمس وتشتد حرارتها حتى يطفو ما كان راسباً فيه وتظهر الأوساخ والقاذورات حتّى أنّ الناظر لا يصدق أنّ أمثال هذه الأوساخ كانت راسبة في قعره. وأنت أيّها الإنسان تنظر أحياناً إلى نفسك فتحمد

ربّك على ما تراه من صفائها ونقائها وخلوها من الرذائل، ولكنك واهم في تصوّرك هذا. دع الشمس تشرق، أو إذا مسّك ضرّ أو شعرت بأي انزعاج حينها ستعرف ذاتك وترى أي رواسب في أعماق نفسك تطفو على السطح حين الغضب وتتجسّد على هيئة سُباب وشتائم أو على هيئة الغيبة والتهمة وما شاكل ذلك.

ومرادي من هذا أن أقول أن العلم الحديث كشف أن روح الإنسان بعضها ظاهر له والقسم الأكبر منها خافٍ عليه. جاء في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1].

سُئِل أحد الأئمّة: ما أخفى من السر؟ قال: أن يكون في روحك شيء لا تعلمه. وجاءت في دعاء كميل جملة تجسّد هذا المعنى تماماً، وهو قول عليّ عليه السلام اللهم أن فيَّ مساوىء يعلمها الملائكة الموكلين بالرقابة عليَّ، ولكن: «**وكنت أنت الرقيب عليَّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم**» أي أنّ في أعماقي أشياء لا تدركها حتّى الملائكة، وأنت وحدك الذي تعلمها.

وإنما ذكرت هذا المثل الشعبي، وهذا الاكتشاف العلمي الذي توصّل له العلماء حديثاً حول المقدار الخفي والمقدار الظاهر من روح الإنسان، لأجل القول أنّ روح الإنسان ليست وحدها على هذه الشاكلة بل العالم كلّه هكذا؛ فالعالم نرى جزءاً منه والجزء الأكبر شأنه شأن القسم المغمور من قطعة الثلج، وذلك هو باطن العالم وجوهره الذي لا ندركه. وهكذا بالنسبة لنا أيضاً فنحن لدينا غير هذه العين عين أُخرى، وغير هذه الأذن أذن أُخرى، وغير حاسة الذوق هذه حاسة ذوق أُخرى، وغير حاسة اللمس هذه حاسة لمس أُخرى، ناهيك عمّا لدينا من قوى أُخرى غيرها. وكما أشرت سابقاً أن الرجل الورع التقي النقي القلب قد يسمع أصواتاً في هذا العالم لا نسمعها نحن. والعلم

---

(١) سورة طه: ٧.

الحديث يحتمل وجود حواس كثيرة، وحتّى أن الحيوانات قد تشعر بأشياء لا نشعر نحن بني الإنسان بها.

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: كنت قبل أن أبعث بالرسالة أرعى الغنم وكنت الاحظ أنها تجفل أحياناً ولكني لم أكن استشعر شيئاً. ولكني بعد ما بُعثت نبياً سألت عن ذلك فقيل لي أن الحيوانات تسمع أصواتاً لا يسمعها الإنسان. ولو سأل سائل: ما هي العبادة أساساً؟ أن الغرض من العبادة أن تتكون لدينا حالة نوارنية. إن شئت أن تسمّيها الحاسة السادسة أو العاشرة أو الحاسة المائة، لعلّنا نهتدي بها إلى عمق ذلك العالم، ومن أجل أن تتكون لدينا روح نفهم بها جوهر العالم. للفخر الرازي أبيات شعرية جميلة يقول فيها ما معناه: أنّني طالما كنت في هذا العالم ولم أتعرّف على جوهره، فلا فائدة من بعده لأنني إذا متُّ أموت أعمى، وذلك قول القرآن: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

ولكن ما المقصود من الأعمى في هذه الآية؟ هل يراد به الشخص الذي لا عين له في رأسه؟ فهذه ليست جريمة ولا ذنب للإنسان فيها، وكم من أولياء الله كانوا عمياناً. ينقل أن السيّد أحمد الكربلائي كان مشهوراً بالورع والتقوى، وكانت له مراسلات مع العالم الكبير المرحوم محمد حسين الأصفهاني (رضوان الله عليه) استاذ العلاّمة الطباطبائي. يُقال أن السيّد أحمد كانت إحدى عينيه سليمة والأُخرى لا يبصر بها، ينقل العلاّمة الطباطبائي أنّه كتب في آخر رسالة له: «أود أن تصاب عيني الأُخرى بالعمى لكي لا أرى شيئاً غيره». أن مثل هذا الأعمى أكثر بصراً من أي بصير آخر.

كان أبو بصير ـ وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام ـ أعمى. وفي أحد الأيام قال الإمام الباقر عليه السلام لأصحابه حين كان جالساً معهم في مسجد المدينة: سأخفي نفسي وأنا جالس هنا في مكاني، وكلّ من يأتي أسألوه عني أين أكون لتروا ما يقول. فجاء جماعة وسألهم أصحابه: هل تعلمون أين أبو

---

(١) سورة الأسراء: ٧٢.

جعفر؟ فكانوا يقولون: لا ندري. (كان الإمام جالساً ولكنهم لا يرونه) وحينما دخل أبو بصير الأعمى، أشار لهم الإمام أن أسألوا هذا عن مكاني. فقالوا له: يا أبا بصير هل تعلم أين أبو جعفر؟ فقال: إذن ما هذه الشمس المشرقة الجالسة هنا؟!.

هذا يدلّ على مقام الإنسان وما لديه من حواس لو أنّه هذّبها لاستطاع أن يبصر بها أشياءً لا يراها أي صاحب بصر. وإذا كان الناس في ما مضى يستنكرون مثل هذا الكلام ويقولون ليس لنا أكثر من خمسة حواس، فالعلم اليوم أثبت وجود حواس أُخرى للإنسان أو هي على أدنى الاحتمالات موجودة بالقوّة.

إذن ما الذي تريد الآية الشريفة: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ قوله؟ من المؤكّد أنّها لا تقصد من كان فاقداً للبصر.

قال البعض في شأن نزول سورة «عبس» أنها نزلت بحق عثمان لأنّه أبدى التكبّر على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ اسمه ابن أُم مكتوم، وقال آخرون أنها نزلت بحق رسول الله ﷺ وأنّه لم يستقبل هذا الرجل كما ينبغي لأنّه كان مشغولاً بمناقشة بعض القوم لأجل هدايتهم. وعلى كلّ الأحوال فقد نزلت الآية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ في أنّه عبّس وجهه «سواء كان المراد هو رسول الله ﷺ أو شخصاً آخر» وأعرض بوجهه حينما دخل الأعمى. لماذا؟ فالعمى الظاهري لا يعد عيباً. إذاً فالقرآن حينما يقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ إنّما يريد أن يبيّن للمسلم أنّه ليست له هذه العين التي في رأسه فقط وإنّما عليه أن يسعى ليفتح عين قلبه أو ما يسمى بالبصيرة.

وهناك آية أُخرى تقول: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[1]. أي أن من يغلق منافذ قلبه أمام هذا النور ويبقيه على ظلمته يصيبه أثر ذلك في الدنيا حيث يبقى يشعر بالضنك

(١) سورة طه: ١٢٤.

والضغط على الدوام في حياته، وحتى لو أعطي سلطان الدنيا وكل ثرواتها لما نفعه ذلك شيئاً ويبقى يستشعر الضيق وكذلك يوم القيامة نحشره أعمى، فيعترض هناك قائلاً: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[١] فيقال له: أنّ البصر في تلك الدنيا لا ينفعك في هذه الدنيا التي تستلزم بصراً آخر كان عليك أن تحصل عليه وأنت هناك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٢] بمعنى أن آياتنا كانت أمامك فلم ترها؛ أي أنك كنت أعمى، ومن البديهي أن تكون هنا أعمى أيضاً. وكل من كانت له بصيرة في الدنيا، فله بصيرة هنا أيضاً. والبصر وحده ليس ملاكاً.

وجاء في سورة الحديد[٣] تصوير لمشهد من يوم القيامة هو: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ يقال لهم: أنّ هذا النور لا يمكن أن يستفيد منه الآخرون: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[٤]. هذا النور ينبغي الحصول عليه في الدنيا. عودوا إلى الدنيا واحصلوا على هذا النور: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٥]. قد تجد يوم القيامة شخصين يسيران سوية أحدهما يرى العالم كلّه نور، والآخر يرى كلّ شيء مظلم، وذلك لأنّ الأوّل لديه نور باطني، وكلّ من لديه هذا النور يضيء بنور السماوات والأرض، ويبدو كلّ شيء أمامه منيراً. ومن يكن مصباح قلبه مطفأً يرى الظلام يسود كلّ الأرجاء، فيبقى يلتمس هنا وهناك ويرجو الجيران أن يعيروه قبساً من نورهم. فيقال له: نأسف فهذا النور لا يُعار.

يصف رسول الله ﷺ شهر رمضان بالقول أنّه: «**شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله**» في هذا الشهر أنتم ضيوف عند الله وهو المُضيّف. فافهموا

---

(١) سورة طه: ١٢٥.

(٢) سورة طه: ١٢٦.

(٣) الحديد: ١٣، هذه الآية تثير العجب، بل أن القرآن كله مثير للعجب؛ فكلّه معارف منظمة ومرتّبة وتدل على أنّه نازل من عالم الروح.

(٤) سورة الحديد: ١٣.

(٥) سورة الحديد: ١٣.

على هذا القياس إلى أي مدىً تفتح أبواب الرحمة في هذا الشهر لأنّكم تعلمون طبيعة العلاقة بين الضيف والمضيّف وأنّ المضيّف هو الذي يحاول تكريم الضيف. ومتى ما حلّ ضيف على الكريم يلقى منه الرعاية والتكريم باعتباره ضيفاً. وما عليكم إلاّ السعي للدخول على هيئة الضيف إلى مضيف هذا المضيّف.

إنّ الذروة التي تبلغها الحالة المعنوية في شهر رمضان إنّما تكون في ليالي القدر ويجب علينا أن نؤدّي على أقل تقدير في أيّام وليالي القدر ـ وهي ليلة التاسع عشر والحادي والعشرين والثالث والعشرين ـ عملاً يؤهّلنا أن نحلّ ضيوفاً على مائدة هذا المضيّف. وكلّ هذا الصوم، وتقييد النفس الأمارة بالأغلال، ومجاهدة الطباع النفسية، وتغليب الجوانب المعنوية على الطباع المادّية، والإكثار من ذكر الله، والدعاء، وتلاوة القرآن، إنّما الهدف منها هو الاستعداد لنكون في ليالي الإحياء هذه قادرين على الدخول كضيوف على مائدة خالقنا؛ لنتوب إليه ونتستغفره ونطلب منه الرحمة والسعادة لأنفسنا، ولأخواننا المؤمنين، ولمجتمعنا الإسلامي، ولإصلاح ذاتنا. العبادة هدفها أن تكون لدى الإنسان نورانية؛ فنحن نعبد الله من أجل أن تكون عبادته وذكره ونسيان غيره وسيلة لنا للخروج من هذه الظلمات، وليستنير قلبنا بنور الله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾[1].

هذه الآيات تكملة لآية النور وكلّها تبتغي غاية واحدة هي جعل كلّ الكائنات في العالم تستنير بنور الله وتدبّر بإرادة حكيمة واحدة. بيّنت الآية التي تناولنا تفسيرها في المجلس السابق أمراً عامّاً خافياً عن الأبصار، وذلك هو تسبيح الموجودات وحمدها لله. إلاّ أنّ هذه الآية والآية التي تليها تبيّنان لنا ظاهرتين واضحتين للعيان في العالم، ولا سيّما أنّ هذا التعبير ورد في آخر هذه الآيات، وهو أنّنا ننظر إليها بعين بصيرة نظرة اعتبار.

تتعلّق إحدى هاتين الظاهرتين بالريح والسحاب والمطر والثلج أو ما يسمّيه العلماء القدماء بـ «الكائنات الجوية»، فيما تتعلّق الثانية بعلم الحيوان وخلق الحيوانات. ومن الطبيعي أنّ القرآن يبتغي من وراء ذلك هدفاً محدّداً يختلف عن الهدف الذي يسعى وراءه العالم المختص بالأحياء أو بالأنواء الجوية. فالقرآن يستهدف من كلّ هذه الأُمور إيضاح الجوانب المتعلّقة بالتوحيد ومعرفة الله والأبعاد المعنوية.

أتحدّث أولاً بإيجاز عن الآية الأُولى التي تصف الأنواء الجويّة؛ هناك

---

(١) سورة النور: ٤٣ ـ ٤٤.

مجموعة من الأحداث التي تقع لا في الأرض ولا في السماء ـ بما تعنيه من حدود الشمس والقمر والنجوم ـ وإنّما في الجو المحيط بالأرض وتسمى بالأحداث الجوية، من قبيل تكاثف الغيوم في الجو، وحركة الريح، وهطول الأمطار، ونزول الثلج والبرد، والعواصف والأعاصير التي قد تكون أحياناً نعمة أو قد تكون بلاءً، وهي على العموم أُمور تتوقّف عليها حياة الكائنات الحيّة ومنها الإنسان. فلو كان الهواء ساكناً سكوناً مطلقاً كالماء في حوض راكد لا يتعرّض لأيّة هزّة، هل يمكن للإنسان أن يعيش في أيّة نقطة من الأرض حتّى وإن كانت معتدلة المناخ؟.

من الواضح جداً أنّه لولا المطر لما كان هناك نبات أو حيوان أو إنسان. أنا لم أُحصي الآيات بنفسي، لكن بعض من أحصوها يدّعون أنّ (١٠٥) آية من آيات القرآن تتحدّث عن الريح والسحاب والمطر والثلج وما شابه ذلك. وقد تطوّر علم الأنواء الجوية تدريجياً شأنه شأن العلوم الأُخرى وخاصة بعد اكتشاف الوسائل والأجهزة الحديثة التي لم تكن متوفّرة في ما مضى، إذ أنّها سهّلت كثيراً على العلماء فهم التغييرات التي تقع في الجو. كانت دراسة الغيوم ـ على سبيل المثال ـ عملاً شاقاً بالنسبة للعلماء قبل حوالي ألف سنة. وبما أنّهم كانوا يلاحظون أحياناً أنّ الغيوم تهبط دون الجبال، كانوا يضطرون إلى صعود الجبال ـ يا لها من مهمّة شاقّة ـ لدراسة ورؤية الغيوم من هناك.

ذكر ابن سينا أنّه صعد مرّات عديدة إلى أماكن تكون السحب أسفل من الموضع الذي هو فيه. وتحدث في أحد كتاباته عمّا يتكون منه السحاب قائلاً: اتّضح لي كنه السحاب خلال إحدى جولاتي وتبيّن لي أنّه يتكوّن أحياناً من الهواء نفسه ـ لأنّهم قديماً كانوا يعتقدون أنّ السحاب بخار فقط لا غير ـ لكن ابن سينا كان يعتقد أنّ الهواء نفسه يتحوّل أحياناً إلى سحاب. وقد ثبت أنّ السحاب عامّة عبارة عن هواء مشبّع ببخار الماء. واليوم وبعد اختراع هذه الأجهزة صار بإمكانهم التحليق فوق السحاب بكل سهولة وبواسطة الطائرة العادية التي يركبها الناس وتطير بهم فوق السحب، حتى أنّ الإنسان ليظن إذا نظر منها أنّ كميات كبيرة من

الثلج تراكمت على الأرض. وكذلك من بعد اختراع أجهزة الإذاعة والمخابرة وغيرها من الاختراعات الجديدة المفيدة في مجال الأنواء الجوية.

التعابير القرآنية في موضوع الرياح والسحاب والأمطار وما إليها، تعابير تثير الدهشة وخاصّة بعد الاختراعات الجديدة في هذا المضمار، مع أنّ القرآن يسير في تعابيره هذه نحو الإتجاه الذي يهدف إليه. والقرآن يصب إهتمامه في كلّ ما يعرضه ـ على موضوع التوحيد، لأجل إيجاد جسر يربط ما بين الإنسان وربّه. إلاّ أنّ التعابير التي صاغها القرآن هنا تثير الدهشة والإعجاب لدى المطلعين على البحوث العلمية وخاصّة في العصر الحديث، بل بدت لهم ضرباً من الإعجاز. وأؤكّد خاصّة على الحضور الكرام وطلبة الجامعات على الأخص أن يطالعوا الكتاب الذي دوّن قبل عدّة سنوات تحت عنوان «الرياح والأمطار في القرآن» ويقسم موضوع هذا الكتاب إلى بابين: الأوّل عن حركة الرياح وتراكم السحب وهطول الأمطار والثلج وما شابه ذلك وفقاً لآخر النظريات العلمية الحديثة. ويأتي في الباب الثاني منه على ذكر الآيات القرآنية الخاصّة بهذا الحقل الواحدة تلو الأُخرى.

والحقيقة أنّ الإنسان إذا طالع هذا الكتاب تأخذه الدهشة والحيرة ويشعر قطعاً أنّ معلوماته مستقاة من جهة علمية أُخرى، ولا يمكن للرسول ﷺ باعتباره إنساناً أن يكون مطّلعاً على مثل هذه القضايا، بل إنّ الإنسان لم يكن على اطّلاع بها حتّى نصف القرن الأخير.

هناك آيتان في القرآن متشابهتان في المعنى وكأنهما آية واحدة، أو قل بينهما اختلاف ضئيل جدّاً. أحداهما هي هذه الآية (٤٣) من سورة النور والتي نصّها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، والأُخرى هي الآية (٤٨) من سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

تقول الآية الواردة في سورة الروم: إنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يرسل الرياح، وأُشير هنا إلى نقطة هي أنّ القرآن يأتي تارة بكلمة «الريح» مفردة، ويأتي بها جمعاً تارة أُخرى «الرياح». وبعد تقصّي هذا المعنى تبيّن أنّ هذه الكلمة حيثما وردت مفردة فهي تحمل دلالة على الخراب والدمار والهلاك والعذاب. مثل قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[1]. وحيثما أُريد التبشير بالرحمة والخير تأتي الكلمة جمعاً «الرياح». وقد أثبت العلم الحديث أنّ الرياح التي تحمل سحباً ممطرة لا تهبّ من جهة واحدة، بل من جهات عديدة وتتظافر سوية بهيئة خاصّة فقط في الوقت التي تسبب فيه نزول الأمطار. والأعجب من ذلك أنّ هذا المعنى الذي يُستفاد من القرآن، صرّح به حديث شريف، فقد ورد في الدعاء: «اللهم اجعله لنا رياحاً ولا تجعله لنا ريحاً». أي حينما تهب على تلك الصورة فقط؛ لأنّها على هذه الصورة فقط «رحمة». وحتّى حينما سئل الأئمّة عليهم السلام عن الفرق بين الريح والرياح أجابوا بنفس هذا الجواب وقالوا: متى كانت الريح ذات جناح واحد كانت عذاباً، ومتى ما كانت متعدّدة الاتجاهات كانت رحمة. وفي حديث آخر شبّه أمير المؤمنين عليه السلام الريح بطائر له رأس وجناحان. وهذا التعبير نفسه استخدمه العلماء الأوروبيون منذ حوالي خمسين سنة، وبيّنوا أنّ حركة الريح تسير أحياناً على هذه الصورة؛ ولو شاهد أحد أجنحتها ووضع حركتها لظنَّ أنّ طائراً عظيماً خيَّم على الأرض.

وبما أنّ القرآن يتحدّث هنا عن رياح الرحمة فقد استخدم كلمة «الرياح» وأوصي هنا ثانية بمطالعة كتاب «الرياح والأمطار في القرآن» وخاصة المطلعين على العلوم الطبيعية الحديثة ولديهم القدرة على حل المعادلات.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ الفعل «تثير» مشتق من المصدر «ثَوَرَ» الذي يعني القلب والتغيير والعرب تسمّي الثور ثوراً لأنه يثير الأرض عند حرثها ويقلبها. وعلى

---

(١) سورة الذاريات: ٤١.

هذا فإنَّ كلمة الإثارة لا تعني التهييج فقط، بل تعني التهييج الذي ينطوي على قلب الشيء. وقد ثبت أيضاً أنّ الجو عند تراكم الغيوم تعتريه تقلّبات وثورات واقعية وحقيقية، وليست مجرّد حركة عادية.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، أي يمدّه كما تمد المائدة. ويقولون: أنّ السحاب مائدة يبسطها الله حيثما تقضي مشيئته. إلاّ أنّ السحب المبسوطة ليست منشأً للمطر. إلاّ بعد أن ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي يجمعه ويضغطه حتّى يجعله في مرحلة أُخرى ركاماً أي متراكماً.

يتّضح من هذا أنّ الأمطار حينما تريد النزول لا بدّ وأن تقع سلسلة منتظمة من التغييرات في الجو؛ إذ لا بدّ أولاً من وجود الريح و... ما إلى ذلك. وردت في الكثير من تعابير القرآن كلمة «تصريف الرياح» وقد اتّخذ هذا التعبير كدليل على إعجاز القرآن. لأنّ الإنسان يتصوّر حسب رؤيته الظاهرية أنّ الرياح تسير أفقياً، أي تتحرك باتّجاه مستقيم على سطح الأرض. ولكن ثبت اليوم أنّ حركتها لولبية دوّارة. ويعود سبب هذه التغييرات طبعاً إلى اختلاف درجة حرارة الجو من مكان إلى آخر. فالهواء الحار يكون أخف بينما البارد يكون أثقل. ويعزى أحد أسبابها إلى نور الشمس، إضافة إلى أسباب أُخرى خارج المحيط الجوي. وعلى كل الأحوال تعتبر حركة الريح حركة تصريفية؛ أي دوّارة ومتحركة.

وبعد هذا تقول الآية الشريفة: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي ترى قطرات المطر تخرج من بين ثناياه. هذا ما جاء في سورة الروم.

أمّا في آية سورة النور فقد وردت نفس تلك التعابير مع اختلاف ضئيل؛ فلم يأت هنا ذكر الريح، بل اكتفت الآية بالقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي أنّ الله تعالى يسوق السحاب. وينبغي هنا الالتفات إلى قضية مفادها أنّ كلّ ما ينسبه القرآن إلى الله لا يعني نفي الأسباب والوسائط، بل معناه أنّ الأسباب كلّها تسير بإرادته. فإذا قال في موضع أنّه يرسل الرياح لتسوق السحاب، أو قال في موضع آخر أنّه يسوق الرياح، فلا تناقض في هذا. لأنّ الرياح إذا ساقت السحاب فمعنى ذلك أنّ الله ساقه، باعتبار أنّ الرياح ليست إلاّ سبباً ووسيلة أوجدها تعالى.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ تطلق أحياناً على من يكتب كتاباً كلمة «مؤلّف» أو «مصنّف» أحياناً أُخرى. بعض الكتّاب في الحقيقة مؤلّفون، أي أنّهم يجمعون مواضيع متفرّقة في مكان واحد ويجعلون بينها اتساقاً وتآلفاً. ولكن تستخدم كلمة المصنف في الحالات التي يكون فيها الكاتب قد ابتكر كل أو ـ على أدنى الاحتمالات ـ جلّ الكتاب. يُنقل أن أحد تلاميذ الشيخ المجلسي مازحه يوماً وأخذ يثني أمامه على كثرة كتب ومصنّفات العلامة الحلّي في مختلف العلوم والأبواب، وفي أنواع الفقه وبمختلف أوجهه المختصر منها والمفصل والاختلافات الواقعة عند الشيعة وعند السنّة وما شابه ذلك ممّا كان مدعاة لإعجاب التلاميذ الحاضرين، فالتفت إليهم المجلسي وقال: وما كتبناه نحن لا يقل عمّا كتبه العلامة الحلّي. فأجابه التلميذ مازحاً: «ولكن بفارق أنّ ما كتبه كان تصنيفاً وما كتبتموه كان تأليفاً».

إذن فالتأليف يعني جمع المسائل الموجودة سوية وإيجاد نوع من التآلف والانسجام بينها.

وقد وردت كلمة «التألف» في هذه الآية بمعنى أنّ الله تعالى يجمع السحب المتفرّقة بواسطة الرياح، كالمؤلف الذي يؤلف بين مختلف المواضيع، ويجعل منه سحاباً متراكماً. وجاء في الآية أنّه: ﴿يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ ومرحلة الركام هذه مرحلة أعلى، أي ليست مجرّد غيوم خفيفة متفرقة، بل تصبح متراكمة بعضها فوق بعض. ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، وهنا تقع نفس النتيجة التي ذكرت هناك، أي تخرج قطرات المطر من بين ثنايا تلك السحب.

ذكرت هذه الآية في سورة النور موضوعاً لم يكن يحمل بالنسبة للعلماء القدماء سوى جانباً تعبّدياً لا أكثر، وذلك هو: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. كلمة السماء تعني كلّ ما هو فوق، وهي مشتقة من «سمو» أي العلو. وكلّ ما هو في الأعلى يسمّيه القرآن سماءً بما في ذلك الشمس والنجوم، بل وحتّى المطر يسمى أحياناً «سماء»، وذلك قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1].

---

(١) سورة نوح: ١١.

بما أنّه ينزل من الأعلى فهو سماء. وحتّى الأمور الغيبية والملكوتية يسمّيها القرآن سماءً لأنها من الوجهة المعنوية أعلى مقاماً. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[1]. وكلّ ما هو قاهر ومسلّط علينا فهو سماء أيضاً.

إذن يجب أن لا يقع أي وهم هنا؛ ففي كثير من الموارد ـ ومن جملة ذلك هذه الموارد الموجودة هنا ـ يقول القرآن نرسل من السحاب مطراً، أمّا هنا فيقول ننزل من السماء مطراً. والمراد من السماء هنا السحاب، والسحاب هو السماء. ﴿يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه ينزل من الأعلى. «ينزل» بمعنى يرسل تدريجيّاً. والفرق بين «الإنزال» و«التنزيل» هو أنَّ الأول معناه الإرسال في مرة واحدة مثل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ويعني الثاني النزول التدريجي. ومن الواضح أنّ كلمة «ينزّل» استعملت هنا لأنّ المطر والحالوب ينزل بالتدريج. وينزل من السماء معناه ينزل من الأعلى تدريجياً. ولكن ما معنى: «من جبال من برد»؟.

اكتشف العلماء حديثاً أنّ الطبقات العليا من الجو حيث تتراكم الغيوم أحياناً فوق بعضها تصبح الحرارة منخفضة جداً وتتكون هناك تراكمات تشبه حقّاً جبلاً من الثلج من ذا الذي كان يعلم بوجود مثل هذه الأمور في تلك الطبقات الجوية العليا؟ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، والمراد هو نزول البرد. وقد تكون «من برد» متعلّقة بـ «ينزل» أي ينزل برداً من الجبال الموجودة هناك.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، لا يتوهّم أحد أن إرادة الله نظير إرادة البشر فما أنّ يمرق السهم من القوس حتّى يخرج أمره عن إرادة الرامي. وهذا يصدق على فعل البشر. أما فعل الله فلا يخرج بتاتاً عن إرادته ومشيئته وسلطانه.

ثمّ يشير بعد ذلك إلى أنّه حينما يبرق البرق: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾. ويتابع القرآن هنا أيضاً من خلال المعلومات التي يقدّمها والتي

---

(١) سورة الأنعام: ١٨ و٦١.

تتطابق تماماً مع الحقائق الجوية التي بلغها علم الإنسان بعد ألف وأربعمائة سنة، هدفه الأساسي ليؤكّد أنّ هذه كلّها آيات إلهية دالّة على وجود الله، وأنّه تعالى هو الذي أبدع هذا النظم وجعل الكون يسير عليه؛ فلا بدّ من وجود الشمس لتشع النور والحرارة، وحيثما تصل حرارتها ترتفع درجة حرارة ذلك الموضع والحرارة تؤدّي إلى تمدد حجم الهواء؛ والهواء الحار يرتفع إلى الأعلى والبارد يبقى في الأسفل، ويضغط الهواء الحار من الأعلى على الهواء البارد، فيحاول الهواء البارد النفوذ بين ثنايا الهواء الحار فتنتج عن ذلك رياح، وجعل الأرض في وضع خاص إزاء الشمس ينتج عنه الليل والنهار، فقال بعد ذلك: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾. ومن الطبيعي أنّ تعاقب الليل والنهار يجعل معدل الحرارة التي تصل إلى مختلف بقاع الأرض في حالة متغيّرة، وهذا من أسباب حدوث هذه الظواهر الجويّة. ولكن على كلّ الأحوال هذه من الأنظمة التي جعلها الله تسير وفقاً لمشيئته، ولولا مشيئة الله وحكمته، لما كانت أمثال هذه القضايا تجري في الكون.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾. كلمة «التقليب» مأخوذة من المصدر «قلب»، ويصطلح علماء الصرف على الكلمة التي يحصل فيها تغيير في تقديم وتأخير حروفها ويقولون حصل فيها «قلب» أو «أقلاب». وسمّي القلبُ قلباً لأنّه في حالة تقلّب دائم؛ أي في حركة وخفقان متواصل. ويطلق على روح الإنسان خاصّة اسم القلب لأنّها تتقلّب بين الحين والآخر من حال إلى حال، ومن فكر إلى فكر. وروي عن رسول الله ﷺ مثلاً لطيفاً في هذا المجال قال فيه: «**إنّما مثل هذا القلب كمثل ريشة في فلاة يقلّبها الريح ظهراً لبطن**». أي أنّه يتقلّب بين مختلف الخواطر والأفكار، فمرّة يحب ومرّة يكره، ومرّة في راحة ومرّة في ضيق.

الله سبحانه وتعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يذهب بالليل ويأتي بالنهار، ويذهب بالنهار ويأتي بالليل. وهذه العملية ينتج عنها طبعاً أنّ الكرة الأرضية تكون دوارة ذات حركة سنوية تدور في كل ٣٦٥ يوماً دورة

واحدة حول الشمس، وتدور حركة دائرية أُخرى حول ذاتها. ومثل الأرض مثل تفاحة يرميها شخص في الهواء ولكن يرميها بشكل يجعلها تدور حول ذاتها. وبما أنّ الأرض تدور حول ذاتها فقد نتج عن هذه العملية تعاقب الليل والنهار، وكما أسلفت القول فإنّ العلماء يقولون: أن توالي الليل والنهار يعدّ من أسباب حدوث الظواهر الجوية؛ لأنّه يؤدّي بطبيعة الحال إلى اختلاف ضغط الهواء الذي ينتهي بدوره إلى حدوث حركة الرياح، التي تقود بدورها إلى تغييرات كثيرة أُخرى.

ويبدو أنّ سر ذكر القرآن لهذا الموضوع بعد الحديث عن السحب وهطول الأمطار هو الإشارة إلى تأثير تعاقب الليل والنهار في حدوث التغييرات الجوية. فهو تعالى يقلب الليل والنهار من أجل أن تكون: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ فيه عبرة لأُولي الأبصار، وكلمة «عبرة» مشتقة من «العبور». من المعروف أن النظر يُقسم إلى نوعين: الأول سطحي لا يرى إلا ظواهر الأشياء، كنظر الحيوان، أو الإنسان الذي في مستوى الحيوان، هذان يلاحظان ظواهر الأمور فحسب، ولا يستنبطان ما وراءها. ولأضرب مثلاً على هذا الأمر من حياتنا. فقد تحصل في الأسعار تقلبات أحياناً كأن يرتفع سعر السلعة اليوم ويرخص غداً، أو بالعكس (وإن كانت السلعة في أجوائنا إذا غلت لا ترخص بعدها أبداً). والناس عادة لا تلاحظ الأسباب الأساسية التي تؤدّي إلى ارتفاع سعر السلعة أو انخفاضها. ولكن يأتي شخص ينظر الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة.

ونسوق مثلاً آخر عن توجّه الشبان نحو الدين أو إعراضهم عنه. فقد يكتفي البعض بالقول أنّ الشّبان أصبح لديهم إقبال على الدين، أو بالعكس، من غير أن ينظر الأسباب والدوافع التي حدت بهم إلى الإقبال أو الإدبار. بينما يأتي شخص آخر ويتعمّق في النظر إلى العوامل التي أدّت بالشباب إلى التوجّه نحو الدين أو إدبارهم عنه. ومثل هذا الشخص الذي ينظر إلى الأسباب والعوامل الأساسية يكون له تسلّط على الحوادث وقدرة على استنباطها.

وكذلك الحال بالنسبة للهزيمة التي تلحق بقوم أو النصر الذي يحرزه قوم آخرون، إذا لم ينظر المرء في أسباب تلك الهزيمة وعوامل هذا النصر فلا يجدي مجرّد الأخبار شيئاً، ولا تُستقى منه الدورس والعبر. ولكنه إذا درس أسباب وعوامل كلّ من النصر والهزيمة قد يتسنّى له التسلّط على الوقائع والأحداث والتحكّم بها؛ فيتمكّن المهزوم أن يوفر لذاته أسباب النصر ويحوّل هزيمته تلك إلى انتصار. هذه أمثلة مبسّطة وصغيرة من حياتنا.

القرآن يريد لنا أن نتأمّل في كلّ أحداث ووقائع الكون ونكتشف أسبابها وسرّها وحكمتها. وأن لا نكتفي بمجرّد القول أنّ الأمطار والثلوج في هذه السنة كانت قليلة، وفي السنة السابقة كانت أكثر، بل لا بدّ من التعمّق في النظر إلى ما فيها من حكمة. وأن لا تكون نظرتنا نظرة عابرة. يريد لنا فهم سرّها، وإدراك سر الأسرار الكامن وراءها، ولنعي في آخر الأمر أنّ الكون كلّه في يد قدرة واحدة ومشيئة واحدة، وتلك القدرة هي سر الأسرار، أي أنّنا كلّما أزحنا حجاباً يظهر لنا من ورائه شيئاً، وإذا ما أزحنا نرى وراءه شيئاً آخر، والقرآن يدعونا إلى عدم الاكتفاء بهذا، بل يأمرنا بالسير قدماً لنطّلع على وجود يد مقتدرة، ومشيئة وإرادة وعلم وحكمة تدبر الكون بأكمله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾[1].

فسّرنا في المجلس السابق آيتين تتحدّثان عن التغيّرات والظواهر الجويّة، وهدفها كما أشرت هو معرفة الله والدلالة على توحيده. أمّا هذه الآية فتتحدّث عن خلق الحيوانات، أو ما يُسمّى في المصطلاحات المعاصرة باسم «علم الأحياء». ويبقى الهدف أيضاً ليس مجرّد معلومات عن الكائنات الحيّة، بل هو إثبات وجود الله، وبعبارة أُخرى يعتبر القرآن هذه الأمور ـ حسب تعبيره ـ آيات إلهية تظهر قدرة الله وعظمته. ولهذا السبب فالكلمة الأُولى التي تقرع سمع الإنسان في هذه الآية وفي تلك، هي كلمة «الله»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾، ويقول في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. فما هو الموضوع الذي تتناوله هذه الآية؟.

تتضمن هذه الآية إضافة إلى الهدف الأساسي الذي هو الله الخالق، موضوعين آخرين أحدهما: أن أصل حياة جميع الحيوانات المتحركة هو الماء. والثاني: أنّ هذه الحيوانات جميعها سواء الزاحف منها أم الماشي على اثنين أم على أربع قد خلقت بمشيئة الله وقدرته.

---

(١) سورة النور: ٤٥ ـ ٤٦.

الموضوع الأوّل الذي قال فيه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾، جاء هذا الموضوع أيضاً في آية أُخرى أكثر شمولية، وهو قوله: ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]. وهنا تأكيد واضح على أنّ العنصر الأساسي في الحياة هو الماء الذي أصبح اليوم من جملة الأمور القطعية من جوانب متعددة منها: أنّ جسم الإنسان مع كلّ ما فيه من أعضاء وجوارح وجلد وعظام وشحم، يشكّل الماء نسبة كبيرة فيه قياساً إلى العناصر الأُخرى، وقد تصل هذه النسبة إلى ٨٠٪ بمعنى أنّ الشخص الذي يزن ٥٠ كيلوغراماً تكون كمية الماء في جسمه ٤٠ كيلوغراماً، وبقية العناصر عشرة كيلوغرامات، حسب ما ذكره لي طبيب متخصّص كان يوصيني بالإكثار من شرب الماء ويتلو عليَّ الآية الشريفة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

كل خلية من خلايا جسمنا التي يقال عنها أنّها تتألّف من ثلاثة أجزاء رئيسية هي: النواة، والغشاء، وسائل البروتوبلازم؛ تعتبر المادة السائلة أهم أقسام الخلية من الوجهة الحياتية، والتي يشكّل الماء العنصر الأساسي فيها. إذن الماء هو المادّة الأساسية في تكوّن كلّ حيوان متحرّك.

من الطبيعي أنّ كلمة «الدابّة» لا تشمل جميع أنواع الكائنات الحيّة. إلاّ أنّ مصدر نشوء سائر الكائنات الحيّة هو سائل كالنطفة، وحتى الحيوانات التي تخرج من بيضة، يشكل الماء أيضاً العنصر الأساسي من مكونات كلّ بيضة. إضافة إلى أنّ الأهم من كل ذلك هو بداية نشوء الحياة على الكرة الأرضية وهو موضوع أكثر العلماء من البحث فيه لكنهم لم يتوصّلوا حتى الآن إلى نتيجة قطعية بشأنه. وإنّما تدور جميع النظريات حول فرضية نشوء الحياة من الماء ولم تنشأ من اليابسة.

وهذا هو السبب الذي يجعل من الماء رمزاً للحياة. وردت كلمة الماء في مواضع أُخرى من القرآن الكريم بصفته رمزاً للحياة وكناية عنها، بل وحتى كناية عن الحياة المعنوية. وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.

مَّعِينٍ﴾[١]. وظاهر الآية واضح جداً، إلاّ أنّ تفاسيرها الواردة عن الأئمّة الأطهار اعتبرت الماء تعبيراً عن الحياة المعنوية. وبهذا يكون معناها: إذا زال من بينكم حجّة الله، أو الإمام، فمن ذا الذي يستطيع أن يأتيكم بمثل هذا الماء الزلال؟ إذن نلاحظ هنا أنّ الإمام الذي هو منشأ الحياة المعنوية عبّرت عنه الآية بـ «الماء».

وعلى كلّ الأحوال فالماء هو سر الحياة ورمزها. أمّا عن علاقة هذا العنصر بالحياة في نظر العلوم الطبيعية فقد أفاضت العلوم الطبيعية في ذكره، والمتخصّصون أكثر منّا معرفة واطّلاعاً على هذا الموضوع. لكن القدر المسلّم به أنّه ليست ثمّة مادة أكثر صلة بالحياة من عنصر الماء.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[٢]. وهذه الكائنات الحيّة بعضها يزحف على بطنه كالحيّة وبعض الديدان الأخرى، وبعضها يسير على رجلين كالإنسان والطيور، وبعضها الآخر يسير على أربعة أرجل.

وبما أن الإنسان وضع هنا في مصاف غيره من حيث مبدأ خلقته من الماء، وأنّ الآية أول ما ذكرت الزواحف وبعدها الأحياء السائرة على رجلين، وبعدها الكائنات السائرة على أربع. وقدمت ذكر الإنسان في مجال الأحياء التي تسير على رجلين، أراد البعض أن يتّخذها (هذه الآية) كدليل يثبت نظرية تطوّر الأنواع، وحاولوا كتابة مواضيع عنها في الصحف والمجلات. وهذه النظرية نظرية قديمة ربّما مرّ عليها أكثر من ألفي سنة أو أكثر، ولكنها بعدما ارتدت ثوباً علمياً لم يمض عليها أكثر من قرنين.

ظهرت نظرية عن الكائنات الحيّة تحت عنوان «تسلسل الأنواع» أو «تطور الأنواع».

هناك الآن أنواع من الحيوانات؛ والإنسان بذاته يعتبر نوعاً خاصّاً منها،

---

(١) سورة الملك: ٣٠.

(٢) سورة النور: ٤٥.

وهناك أيضاً الحصان، والحمار، والبقرة، والجمل، وأنواع الطيور، وأنواع الأسماك، وأنواع الوحوش والضواري فما هي أُصول هذه الحيوانات؟ وهل أصل كلّ واحد منها يختلف عن أصل الآخر؟ وهل أصل جميع الأبقار بقرة واحدة؟ وأصل جميع الجمال جمل واحد؟ وهل يعود أجداد هؤلاء الناس جميعاً إلى جد واحد؟ ثمّ هل الأصل أو الجد النهائي لكلّ منها لا صلة له بسائر الحيوانات الأُخرى؟ أم هذه الأنواع التي نراها اليوم مع ما بينها من الاختلافات والتفاوتات تعود أساساً إلى فصيلة واحدة كبيرة؟ كأن تعود الخيل والجمال أو السباع والأبقار والقرود وأنواع الطيور والأسماك والحيّات والحشرات، بكل فصائلها إلى أُسرة واحدة ويرجع الجميع إلى جدّ واحد. وإذا كان الأمر كذلك، فمن هو ذلك الجد؟ وعلى أيّة هيئة كان؟ هناك بطبيعة الحال ـ فرضيات كثيرة في هذا الحقل، والبعض يميل إلى تطبيق ما جاء في القرآن على كلّ ما تقول به العلوم، ولهذا يعتقدون أنّ الآية تشير إلى خلقة جميع الكائنات من ماء واحد. والمراد من ذلك أنّ الحياة أوّل ما بدأت بخلية واحدة نشأت على سبيل الفرض أول أمرها إلى جوار بركة ماء، إذن فالحيوانات تعود بأجمعها إلى حيوان يتألّف من خلية واحدة وهذا الأخير يعود مصدره إلى الماء، ثمّ أنّه تكامل تدريجياً؛ فنشأت عنه الزواحف والدواب، ثم قال القرآن: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

ولكن وللحق أقول أنّ هذه الآية لا تحمل أيّة دلالة أو تصريح بهذا المعنى. ولا يمكننا أن نستنبط من هذه الآية أنّها تشير حتماً إلى نظرية تطوّر الأنواع. ولكن ثمّة قضية أُخرى في هذا الصدد وهي أنّنا يجب أن لا نقع في ذات الخطأ الذي وقع به بعض الجهلة الذين قالوا: إذا كانت الأنواع قد توالدت من بعضها الآخر، فهذا يدلّ على انعدام الخلقة وقدرة الخالق. فلم يكن هناك أسد حتّى نقول أنّ الله قد خلقه، ولم يكن هناك حصان لنقول أنّ الله خلقه، ولا بطّة لنقول أنّ الله خلقها؛ لأنّ أيّاً منهم ليس له جد أول. وعلى هذا الأساس فليس ثمّة ما يدعونا إلى القول أنّ الله قد خلقها.

إنّ هذا الرأي في الحقيقة راي ساذج؛ فهب أنها جميعاً تعود إلى جد واحد ذي خلية واحدة. إذن فالحياة الأولى قد ظهرت على وجه البسيطة من

حيوان ذي خلية واحدة. ولكن من الذي أوجده؟ لم يصرّح العلم حتى الآن بأنّ حيواناً من خلية واحدة ينبثق من تلقاء نفسه بلا أن يكون قد اشتق من كائن حي آخر. وحتى (داروين) الذي قال بهذه النظرية كان يعتقد أنّ أصل جميع الأنواع تعود إلى سبعة أحياء، وهنا تكون تلك الأحياء السبعة قد خلقت بنفحة إلهية.

كان (داروين) موحّداً ومسيحياً متمّسكاً بالدين، ويُقال أنّه حين الاحتضار ألصق الإنجيل بصدره ولم يتركه، داروين نفسه لم يكن على هذه الدرجة من الداروينية التي يسير عليها بعض الصبيان ممن قرأوا بضعة أسطر عن «نظرية التطوّر» أو «الدراوينية» ويريدون من بعدها إنكار الله والقيامة وكل شيء.

ثانياً: هل أننا نعترف بالله خالقاً لنا حينما يكون قد خلق جدّنا على هيئة إنسان مرّة واحدة؟ فهذا الموضوع لا صلة له بذاك؛ فنحن من خلق الله على كل الأحوال والقرآن الذي يقول: خلقكم الله يقول: انظروا أنكم كنتم نطفة في الرحم، فجعل الله النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فكساها لحماً، إلى نهاية عملية الخلق، إلا أنّنا نخلق نحن تدريجياً في رحم الأم ونمر بهذه السلسلة من التطورات إلى أن نصبح جنيناً وهذا الجنين يكبر على الدوام، نكون في هذه الحالة في حالة خلق دائمة، بل وأنّ العالم بأسره ـ كما يقول العرفاء ـ في حالة خلق على الدوام، ولو كان الله تعالى قد خلق الخلق ثم انتحى جانباً ـ والعياذ بالله ـ ولا يحصل أي جديد في عالم الخلقة، لما وقع أي تغيّر في الكون. ولكن بما أن العالم في حالة دوران وحركة وكل شيء فيه يفنى ويحدث على الدوام ـ جوهراً وعرضاً ـ فهذا هو معنى أن العالم في خلق دائم.

ليس ثمّة فارق من حيث الخالقية والتوحيد بين أن تكون الأنواع خلقت دفعة واحدة أو أنّها تكاثرت من بعضها الآخر. ومعنى هذا الكلام أنّ نظرية داروين تحمل من معاني التوحيد ما تحمله أية نظرية توحيدية أُخرى. إلاّ أنّ البعض تصوّر ـ ما لم يكن قد خطر حتى على بال داروين نفسه ـ أنّ ثمّة سلسلة من القوانين الطبيعية في مجال تطور الكائنات الحيّة تمّ الكشف عنها، وأنّ تلك

القوانين الطبيعية كافية لوحدها لتطويرها، ولا ضرورة في إنجاز هذا النظام لوجود مبدأ ما وراء الطبيعة، أو ضرورة لتدخّل إرادة غيبية. ولكن كيف؟.

عرضوا من أجل ذلك جملة من المبادىء ـ التي كان داروين نفسه قد ذكرها أيضاً ولكن بخصائص أُخرى ـ وهي:

١ ـ **حب البقاء**: كلّ كائن حي يحب ذاته ويسعى للحفاظ عليها، ويتنازع مع الآخرين في سبيل ذلك. وهو ما يؤدّي تلقائياً إلى مبدأ آخر هو:

٢ ـ **التنازع لأجل البقاء**: وهذا التنازع يؤدّي بشكل طبيعي إلى تغلّب الموجود الأقوى والأصلح للبقاء، في حين يسحق الضعيف ويزول من الوجود.

٣ ـ **مبدأ بقاء الأصلح أو انتخاب الأصلح**.

٤ ـ **مبدأ تأثير البيئة**: من الطبيعي أن للبيئة تأثير على الكائنات الحيّة.

٥ ـ **مبدأ الوراثة**: وهو ما ترثه الأجيال من سلفها وتنقله بالوراثة إلى خلفها.

وقد تعرضت هذه المبادىء للنقد والتجريح في ما بعد. لكن ما أثبته العلماء الإلهيون هو حتّى لو افترضنا أن هذه القوانين التي تعتبرونها كافية للتطور كانت صحيحة، فهل تكفي لوحدها لإيجاد إنسان من خلية واحدة ولو بعد مرور ملايين السنين، بحيث يتّصف بمثل هذا الجهاز المنظم الدقيق؟ داروين نفسه الذي طرح مبدأ «التكيّف مع البيئة» الذي يعني أنّ كلّ موجود حي يتكيّف مع البيئة التي يعيش فيها، كان قد طرحه بشكل آثار ضدّه بعض الاعتراضات القائلة بأنه طرح هذا المبدأ وكأنّه مبدأ غيبي. وهذا هو الحق. لأنّ هذا المبدأ أثبت أنّ لدى كل موجود في أيّة بيئة كان، قوّة داخلية خفيّة تجعل وضع أعضائه وجوارحه وظروف حياته بشكل يتلائم مع المحيط الجديد حتّى بدون إرادته أو رغبته. وهذا من الأسرار الخفية في عالم الخلق، أي من الأسرار التي تثبت أنّ مبدأ الهداية الإلهية موجود في كيان الموجودات كافة، وأن ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ موجود في

كل مكان، ويهدي الكائنات في أيّة ظروف كانت نحو خيرها وكمالها بدون أن تعي ذلك أو تدركه.

ها نحن الآن جالسون هنا، وقلب كل واحد منّا يعمل بانتظام وفق ميزان معين، وكبده يعمل بميزان معيّن، ودمه له ميزان معين، ولكريات دمه البيضاء ميزان معيّن، وكريات دمه الحمراء لها ميزان معين. وإذا ما تغيّرت ظروفنا المحيطية كأن يصعد أحدنا إلى طبقات الجو العليا حيث ينخفض الضغط الجوي هناك تتغيّر عند ذاك حاجات البدن، وما أن تتغير حاجات البدن ـ وأقصد طبعاً أن لا يكون الصعود سريعاً، وإنّما صعود تدريجي يتسنى فيه للجسم إبداء ردّ فعله إزاء الجو الجديد ـ حتّى يغيّر جهاز البدن نظامه تدريجياً ليتكيّف مع الوضع الجديد. فإذا كان عدد كريات الدم البيض على سبيل المثال كبيراً ولا حاجة لها هناك، يتخلص من بعضها أو بالعكس إذا كان البدن بحاجة إلى المزيد من كريات الدم البيضاء يبادر إلى إنتاج عدد كبير منها.

وحتّى إذا لم تكن القضيّة تتعلّق بتغيّر البيئة، وإنّما حتّى إذا فقد الإنسان كميّة كبيرة من دمه على أثر حادثة دهس أو كسر أو جرح، ويكون البدن حينها بحاجة إلى مقدار معيّن من الدم، يبادر الجسم كله إلى العمل من أجل إنتاج الدم. والبدن عادة ما دامت فيه كمية كافية من الدم فهو في حالة استقرار وسكينة، ولكن ما أن يشعر بالحاجة إلى الدم حتى يسارع للمشاركة في تأمين حاجته. إلاّ أنّ البدن لا ينتج اعتباطاً، بل الشرط الأول لإنتاج الدم هو توفّر الماء. فأنتم تلاحظون أنّ الشخص الذي يصاب بجرح ويفقد كمية من دمه يشعر بعطش شديد. لأنّ البدن في مثل هذه الحالة يكون بحاجة شديدة إلى الدم، والشرط الأول لإنتاج الدم هو توفر الماء. فيحصل لديه هذا العطش لكي يشرب الماء ويسارع البدن بعدها لإنتاج الدم. وهذا ما لا يمكن العثور على تعليل له بين الأسس الطبيعية العمياء التي يقول بها داروين. وهناك الكثير من أشباه هذه القضايا.

سبق لي وأن نشرت في ما مضى مقالاً في مجلة «مكتب تشيّع» تحت

عنوان: «التوحيد والتكامل» أثبتُّ فيه أن نظرية داروين إن أصابت وإن أخطأت لا ضرر لها على مبدأ التوحيد، بل أنها تنطوي على دعم وتأييد النظرة التوحيدية حيث تثبت وجود يد خفية تتولّى تدبير وهداية الكائنات الحيّة من داخلها بما يدفعها إلى التكيّف مع متطلّبات ومستجدّات الحياة.

والآن ما هي العبرة التي نتّخذها في هذا المجال؟ هل هي مجرد معلومات عن علم الأحياء وأن الكائنات الحيّة قد خلقت جميعها من الماء؟ صحيح هذا علم. وأن الله تعالى قد خلق كائنات مختلفة ـ مع أنّه أصلها جميعاً من الماء ـ ربّما بالصورة التي عرضها داروين في نظريته «تطوّر الأنواع»، أو ربّما بشكل آخر. ولكن على كلّ الأحوال ظهرت أنواع كثيرة يستعصي على الإنسان الواحد معرفتها كلّها. بمعنى لو أننا أردنا التعرّف على أنواع تلك الحيوانات لاستلزم ذلك منّا سنوات طويلة، وربّما نجد أنفسنا في ختام المطاف عاجزين عن هذا العمل. أضف إلى أن المتخصّص إذا عرف أنواع الحيوانات الصحراوية، فهو غير قادر على معرفة الأنواع البحرية منها.

إذن ما هو الهدف الذي يبتغيه القرآن؟ هدف القرآن هو كلمة «الله». القرآن يريد لنا أن نلتفت دائماً إلى هذه النقطة وهي كيف أن شؤون الخلقة في هذا العالم تعكس لنا وجود ذلك النور، وأنّ جميع هذه الحركات والسكنات لا تجري بشكل أعمى، بل أن نوراً إلهياً موجود في جميع ذرات الكون. وأن كلّ هذه المظاهر تعكس مشيئة الله وتقديره وحكمته. ولهذا السبب أشار بعد ذكره الزواحف والدواب إلى أن الخلق ليس منحصر بهذه الأنواع التي ذكرناها هنا على سبيل المثال لا غير، وذلك قوله عزّ من قائل: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾. بمعنى أنّ هذا كلّه من خلق الله وجاء وفقاً لمشيئته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وقدرة الله لا حدّ لها ان يخلق ما يشاء وكيف يشاء. وهو قدير وعليم وحكيم ومريد. ولا يخلق شيئاً كيفما اتّفق وبلا حكمة.

فمع أنّ قدرته مطلقة ومشيئته لا راد ولا حدَّ لها إلا أنّه يخلق كلّ شيء على أساس الحكمة.

كان هذا الفصل من بداية سورة النور إلى هنا مختصاً بموضوع التوحيد؛ يريد القرآن أن يثبت من خلاله أنّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. كما أنّه قال بعد إتمام هذا الموضوع، وكأنه يريد الإشارة إلى الانتقال إلى موضوع آخر مستقل من جهة ومرتبط بهذا الموضوع من جهة أُخرى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾. وقال المفسّرون أنّ الايات المقصودة هنا هي آية النور فما تلاها. والحقيقة أنّه يريد أن يقول إلى أنّنا نلفت انتباهكم مرّة أُخرى إلى ما سبق قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

مهمة القرآن التوعية والهداية: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذه هي آيات التوعية والهداية. ولكن ما الذي تريد الآية تسليط الضوء عليه؟ أنّه الطريق. فالإنسان مخلوق سائر ومتحرّك، وهو سائر على طريق وينبغي له بلوغ الغاية المطلوبة. وهذه الآيات النازلة هدفها إنارة الطريق أمامه. ثم يؤكّد أن الله يهدي من يشاء، وهذا معناه أنّه لا هداية بلا مشيئة الله. ولكن ينبغي أن لا يقع أي لبس هنا أنّ فعل الله يقع اعتباطاً. لأنّ مشيئته كما أوضح في مواضع أُخرى تسير وفق نظام معيّن قد يشمل أشخاصاً دون غيرهم. وهناك آيات أُخرى أوضحت حقيقة هذا الموضوع.

جاء في إحدى الآيات الشريفة في بداية سورة البقرة قوله عزّ وجلّ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾. ولكن كيف يهدي الله بالقرآن جماعة ويضل آخرين؟ أليس القرآن كتاب هداية، وليس كتاب ضلالة؟! يقول في ذلك: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. أي الذين مسخوا وأفسدوا فطرتهم النزيهة. والقرآن حبل الله الذي أنزله لينتشل الإنسان من مهاوي ظلمة الطبيعة. ولكن من الذي يجوّز له التمسّك بهذا الحبل؟ هو الإنسان. ولكن الذي لا يتمسّك به فالذنب ذنبه. ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وقد تكرّر هذا المعنى في آيات قرآنية كثيرة، وأن للضلالة والهداية نظاماً خاصاً، وأنّ الضلالة عقوبة إلهية.

وخلاصة الموضوع هي أنّ النور الإلهي قد أضاء تلك الدار في أقصى درجات الإضاءة وهو المثل الذي ضربه بالمشكاة والمصباح لأنّه

كان أقوى وسيلة للإضاءة، وأنّ النور الإلهي قد غمر الكون بأقصى درجة من النور. وهذا الموضوع صحيح جداً. أمّا إذا أردنا تطبيق هذا المثل على الإنسان، فالقول صحيح أيضاً وهو ما قاله ابن سينا، وهو طبعاً من الوجهة الإيمانية أكثر صحّة، كما جاء في الروايات. فضلاً عن أنّ الرواية لا تقارن مع كلام ابن سينا، فهي تنسجم تماماً مع الآيات اللاحقة لها، لأنّها ـ أي الآيات اللاحقة ـ تضرب مثلاً بقلب الكافر الذي يكون مظلماً. ولو كان المثل للمؤمن فمعنى ذلك أنّ قلب المؤمن مضيء كالدار التي فيها مثل هذا المصباح، على العكس من قلب الكافر الذي تخيّم عليه الظلمة.

وإذا كان المثل لعموم المجتمع الإنساني، والنور الذي أضاء للمجتمع البشري، وهو النور المقدّس لخاتم الأنبياء ﷺ نلاحظ هنا أيضاً أنّ المثل كامل وجامع. وسأتناول في المجلس القادم تتمّة الآية[1] وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أسألك اللّهمّ باسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجل الأكرم يا الله، اللهم أنر قلوبنا بالنور الذي جعلته في القرآن لأهل الإيمان، اللهم واجعل نيّاتنا خالصة لوجهك، ونجّنا من الظلمات، واغمر أمواتنا برحمتك.

والحمدلله رب العالمين.

---

(١) لا يعلم هل عقدت المجالس اللاحقة أم لا وعلى كلّ حال لم تقع بأيدينا مواضيع أُخرى من الاستاذ الشهيد عن تفسير سورة النور.

الروح والنور
في القرآن الكريم

"... لا شك في أن غاية الإسلام على المستوى الإيديولوجي هي فطرة الإنسان. وبهذا فإن المخاطب في الإسلام عامة الناس وليس طبقة أو طائفة معينة . وقد إستطاع الإسلام أستقطاب المحامين والمدافعين عنه من أوساط جميع الطبقات حتى الفئات التى قارعها أي ما إصطلح عليه القرآن الكريم «الملأ والمترفين» . فعملية تجنيد أفراد من طبقة ضد الطبقة نفسها ومن فئة ضد مصالح تلك الفئة ،بل تحريك الفرد ضد إنحرافاته ، من الممارسات التي كثيراً ما أبدعها ويبدعها الإسلام على مدى التاريخ . فالإسلام بفعل إعتماده على فطرة الإنسان قادر على إثارة الفرد وتحريكه ضد إنحرافه النفسي ، أما الفكر الطبقي فهو قادر فقط على إثارة فرد ضد أخر أو طبقة ضد أخرى لكنه عاجز تماماً عن تثوير فرد ضد نفسه ."

من أقوال العلامة الشهيد مطهري

دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية فواز
هاتف: ١٢٤٦٩١ / ٧٠ - ٢٧٥٦٧٨ /٠١